المداراة في الإسلام
(دراسة تأصيلية)

الدكتور وليد محمد مصطفى السعد

-

-

السيرة الذاتية

) دكتوراه في العقيدة بتقدير "ممتاز" من شعبة العقيدة - كلية أصول الـدين - جامعة أم درمان الإسلامية في أم درمان - السودان ، بتاريخ / / م، وكانت أطروحة الدكتوراة تحقيق ودراسة مخطوطة "النواقض في الرد على الروافض" لميرزا مخدوم معين الدين عبدالباقي بن محمد الحسين الشيرازي المتوفي سنة هـ، وأشرف عليها فضيلة الأستاذ الدكتور حسن الفـاتح قريب الله.

) ماجستير في العقيدةوالمذاهب المعاصرة بتقدير "جيد جداً" من قسـم العقيـدة والمذاهب المعاصرة - كلية أصول الدين - جامعة الإمام محمد بن سـعود الإسلامية - الرياض، بتاريخ / / م، وكانت رسـالة الماجسـتير بعنوان "خوارق العادات وحقيقة الولاية ولافـرق بينهـا وبـين الأحـوال الشيطانية" بإشراف الدكتور صالح بن فوزان آل فوزان.

) بكالوريوس في الشريعة الإسلامية من كلية الشريعة - الجامعة الأردنيـة - عمان - الأردن، وذلك بتاريخ / / م بتقدير "جيد".

:

) محاضر متفرغ بقسم الدراسات الإسلامية - كلية التربية بجامعة الملك سعود (جامعة الرياض سابقاً) لمدة عشر سنوات مـن تـاريخ / / م - / / م.

) محاضر متفرغ في كلية الدعوة وأصول الـدين - عمـان - الأردن، فـي الفصل الدراسي الثاني من العام الدراسية / م.

) أستاذ مساعد - قسم الشريعة - كلية الآداب - جامعة العلـوم التطبيقيـة - عمان - الأردن - من / / - / / م.

) أستاذ مساعد - قسم الثقافة الإسلامية - كلية التربية - جامعة الملك سـعود - الرياض - من / / م - حتى الآن.

) شاركت في تأليف الكتب التالية: الثقافة الإسلامية، الإسلام وقضايا العصر، الأخلاق في الإسلام.

) بحث بعنوان "التقية بين أهل السنة ومخالفيهم" هـ - م.

بسم الله الرحمن الرحيم

المداراة في الإسلام

(   )

-                              -

موضوع هذا البحث هو (المداراة في الإسلام (دراسة تأصيلية))

وتظهر أهمية هذا الموضوع في بيانه لخلق عظيم من أخلاق الإسلام، غفل عنه كثير من الناس، مع أنه مرتبط بأقوالهم وأفعالهم، ومتعلق بسلوكهم ومعاملاتهم وينطوي هذا الخلق على الكلمة الحسنة، وطلاقة الوجه والبشر، والإحسان ، والرفق، وخفض الجناح .. الخ .

واصطلح علماؤنا على تسميته باسم (المداراة).

لقد اختلفت فهوم الناس حول المداراة، فمنهم من عدّها من المداهنة والنفاق والخداع، فحرّمها، ومنهم من عدها من التقيّة لا تُباح إلاّ للمضطر. ومنهم من عدّها خصلة من خصال الإسلام العظيمة، فهي سنة مشروعة مندوب إليها لمصلحة التألف، ولا يكمل عقل الإنسان إلاّ بها. وسيظهر ذلك كله في ثنايا البحث إن شاء الله.

ويتلخص منهج الباحث في هذه الدراسة ببيان معنى المداراة لغة واصطلاحاً، والفرق بينهما وبين المداهنة والنفاق والخداع والتقيّة. والأدلة الصريحة، والتي يمكن الاستئناس بها على مشروعيتها. ثم بيان أنواعها وآثارها

مستعيناً بالمعاجم اللغوية، والآيات الكريمة وتفسيرها، والأحاديث النبوية وشــرحها، والمأثور عن بعض أهل العلم فيها. مع الرجوع إلى بعض المراجع الأخرى المتعلقة بالموضوع، ثم القيام بالعرض والتحليل والبيان.

والهدف من هذه الدراسة يتلخص في نقاط ثلاث:

- دفع تهمة المداهنة والنفاق والخداع عن المداري.
- بيان اختلافها عن التقية، وأنها ليست حالة طارئة بل تتسع لتشمل حياة المســلم كلها.
- الحث على ممارسة هذا الخلق تأسياً بالأنبياء والرسل - عليهم الصلاة والسلام، وذلك لإبراز الصورة الايجابية للإسلام، التي حاول ويحاول أعــداؤه تشــويهها بالإدعاء ، أنه لا يستطيع أن يستوعب الآخرين، ويندمج معهم.

وقد انتهى الباحث إلى أن المداراة خلق من أخلاق الإسلام العظيمــة، لا يقــوى عليه ولا يطيقه إلا أصحاب الهمم العالية. وأنها حالة دائمة مطلوبة فــي الأقــوال والأفعال في غير ترك الحق. أما إذا وصل الأمر إلى خَدش الدين والمساومة عليه، فلا مداراة حينئذ بل تكون مداهنة ونفاقاً وخداعاً. وهي كذلك سبيل إلــى طمأنينــة الفرد المسلم والأسرة المسلمة والمجتمع المسلم لما لها من تأثير كبير فــي انتــزاع الشر من النفوس، كما أنها تساهم في نشر الإسلام، وجذب الناس إليه.

والله الموفق .

والحمد لله رب العالمين .

الباحث

من مزايا ومحاسن الدين الإسلامي الخاتم، أنه فتح أبواباً كثيرة من الخيــر، تشمل حياة المسلم الفردية والاجتماعية. يستطيع من خلالها الفوز برضــوان الله - سبحانه - في الدنيا والآخرة. ومن هذه الأبواب، باب الملاينة والملاطفة والبشاشة، والبِشر وطلاقة الوجه، وحسن المعاشرة، والصبر على الأذى، والتودد بطيب الكلام وحسن الفِعال مع الآخرين، من الأقارب والأباعد، ومع الظلمة، والفجار، والسفهاء، وأصحاب الألسن الذين يقعون في أعراض الناس، والكفار المسالمين، وغير ذلــك من شرائح المجتمعات. تأليفاً لقلوبهم النافرة من الدين وجذبهم إليه، وتخليصاً لهم من الأخلاق الذميمة والأفعال المنكرة، واتقاءً لشرهم.

وقد اصطلح علماؤنا على تسمية هذا الباب "بالمداراة" .. ونظراً لما تنطوي عليه المداراة من الترحيب بالكافر والفاجر والمــبغَضِ، وملاينــتهم، وملاطفــتهم، والإحسان إليهم، ظنّ بعض الناس أنها ضرب مــن ضــروب المداهنــة، والنفــاق والخداع، فهي وإن كانت ذات تأثير كبير في العجمــاوات، فــإن ضــررها علــى المداري عظيم، لطعنها في شجاعته، وقدحها في مروؤته، وخدشها لدينه، وإســاءة الظنون به. وهذا من شأنه أن يؤدي إلى إيجاد شرخ في العلاقة بين الدعاة إلــى الله عز وجل والمدعوين، وبين الزوج وزوجته، والأب وابنه، والحاكم ورعيتــه، وربّ العمل وعماله.. الخ.

وظنّها بعضهم باعتبارها إحدى معاني التقيّة في اللغة، أنهــا ضــرب مــن ضروب التقيّة المشروعة عند الإضطرار. فيظهر الشخص أمراً والباطن خلافه لدفع الأذى المحقق عنه.

وانطلاقاً من هذا المفهوم غير الصواب للمداراة عند بعض النــاس، آثــرت البحث في هذا الموضوع بعنوان "المداراة في الإسلام . دراسة تأصيلية". وســيكون منهج الباحث في هذا الموضوع هو تتبع واستقصاء المداراة ومعانيها، مــع بيــان

المعاني المشتبهة بها في مظانّها، وذلك بالرجوع إلى القــرآن الكــريم وتفســيره، والحديث الشريف وشروحه، متجنباً ما أمكن الأحاديث الضعيفة بيّنة الضعف، رغم موافقة بعض ما جاء فيها للأحاديث الصحيحة، اللهم إلاّ ما نــصّ العلمــاء علــى تحسينه من خلال كثرة طرقه. وكذلك الرجوع إلى معاجم اللغة العربيــة، وكتــب السيرة والتاريخ، وبعض أقوال السلف - رضي الله عنهم - وتطبيقاتهم لها.

أما سير الباحث فيه فسيكون على النحو التالي:

- بيان معنى المداراة في اللغة والاصطلاح.
- ذكر أهم الفروق بينها وبين المداهنة والنفاق والخداع والتّقيّة.
- ذكر بعض الأدلة من الكتاب والسنة، والمأثور من أقوال العلماء وبيان وجه دلالتها عليها.
- بيان أهم أنواع المداراة المشروعة في الإسلام مثـ :
  أ. المداراة بالكلمة اللينة والقول الحسن.
  ب. المداراة بطلاقة الوجه والبشر.
  ت. المداراة بالعطايا والهبات.
  ث. المداراة بالنصيحة والدعاء.
  ج. المداراة بالصحبة الجميلة والمعاشرة الحسنة.
- بيان آثار المداراة على الأفراد والجماعات.
- خاتمة البحث، وفيها أهم النتائج التي توصل إليها الباحث.

وصلى الله وسلم على محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

الباحث

المداراة في اللغة والإصطلاح

المداراة في اللغة بغير همز، وأصلها بِهَمز . تقـول : دَرأه دَرْءاً : دفعـه، ودرأ الشيء: بسطه، وتدارؤوا. تدافعوا في الخصومة، ودارأتُه: إذا داريته ودافعته ولاينته( ) . ومثلها ، دراءات الرجل: إذا دافعته، ورفقت به، وداريت الظبـي: أي احتلت له، وختلْته حتى أصيده( ). والإسم ، المداراة: وهي الدفع برفـق( ) واللـين والتعطف( ) قال الشاعر:

ما دمت حيّا فدار الناس كلهم : فإنما أنت في دار المداراة ( )

إذن فالكلمة تحمل معاني متعددة تدور كلها حول الملاينة والملاطفة، والدفع برفق، ولا يكون ذلك إلا بطيب الكلام، وحسن الخلق، والظهور بمظهـر المشـفق الحريص على تخليص الغير مما هو فيه، أو دَرْء الأذى عن نفسه، أو جلب مصلحة مشروعة تعود بالنفع عليه وعلى الآخرين.

أما في الإصطلاح ، فإن تعريفها لا يخرج عـن معناهـا اللغـوي، فمـن تعريفاتها الاصطلاحية ما يلي:

الأول: المداراة : هي الملاينة، وحسن الصـحبة والخُلـق والمعاشـرة، واحتمـال الآخرين. لئلا ينفروا عنك. ( )

الثاني: هي حسن المعاشرة مع الناس، وبذل الجهد في الإحسان إلـيهم والإغضـاء عنهم. يقول تعالى (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِ)( )

( ) الفيروز أبادي (محمد بن يعقوب): القاموس المحيط/ص ، ط ، مؤسسة الرسالة - بيروت ، م.
( ) ابن منظور الإفريقي (محمد بن مكرم): لسان العرب المحيط / تقديم الشيخ العلايلي، إعداد وتصنيف يوسف خياط، ونديم مرعشلي، دار لسان العربي. بيروت.
( ) ابن حجر العسقلاني (أحمد بن علي بن محمد الكتاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري / ترقيم محمد فؤاد عبدالباقي. مكتبة الرياض الحديثة.
( ) الميناوي(محمد عبدالرؤوف): فيض القدير شرح الجامع الصغير / ، ط ، المكتبة التجارية الكبرى، مصر م.
( ) الثعالبي (عبدالملك بن محمد : خاص الخاص قدم له حسين الأمين / ص - دار مكتبة الحياة - بيروت.
( ) ابن منظور : لسان العرب المحيط /
( ) ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري / كتاب الاعتصام . والآية رقم : الأعراف.

الثالث: هي بذل الدنيا لصلاح الدنيا أو الدين، أو هما معا ( )

الرابع: وهي إلانة الكلام للكفار والفسقة والظلمة، والتبسم في وجوههم، والإنبساط معهم، وإعطاؤهم لكف أذاهم وقطعِ ألسنتهم، وصيانة العِرض منهم. ( )

الخامس: المداراة: هي خفض الجناح للناس، ولين الكلمة، وترك الإغلاظ لهم في القول، وذلك من أسباب الألفة. وهي من أخلاق المؤمنين. ( )

السادس: هي: الرفق بالجاهل في التعليم، وبالفاسق في النهي عن فعله. وترك الإغلاظ عليه حتى لا يظهر ما هو فيه، والإنكار عليه بلطف القول والفعل. ولا سيما إذا احتيج إلى تألفه. ( )

ويلحق بالمداراة المكاشرة، وأصلها في اللغة من كشَر. تقول كَشَر عن أسنانه يكشِر كَشْراً: أبدى. ويكون في الضحك وغيره. والكَشر بفتح أوله: بدو الأسنان عند التبسم. وأكثر ما يطلق عند الضحك. ونكشِرُ في وجوه القوم. أي نبسم في وجوههم. وكاشَره: إذا ضَحك في وجهه وباسطه، والإسم : الكشرة( ) .

إذن فالكشْرة هي التبسم والضحك والإنبساط، وإظهار الأنس والفرح للناس. وهي إحدى معاني المداراة المطلوبة مع الآخرين. فعن أبي الدرداء - رضي الله عنه أنه قال " إنا لنكشِر في وجوه أقوام، وإن قلوبنا لتلعنهم"( )

"الفرق بين المداراة ، والمداهنة، والنفاق والخداع، والتقية"

على الرغم من اشتراكها في بعض المعاني اللغوية والتعريفات الإصطلاحية إلا أن البحث سيظهر فرقاً كبيراً وجوهرياً بينها.

( ) ابن حجر العسقلاني: فتح الباري / كتاب الأدب.

( ) الألوسي (محمود) : روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني / ط ، إدارة الطباعة المنيرية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، م.

( ) ابن حجر العسقلاني : فتح الباري بشرح صحيح البخاري /

( ) ابن حجر العسقلاني : فتح الباري بشرح صحيح البخاري /

( ) ابن منظور : لسان العرب / ، الفيروز أبادي : القاموس المحيط/ ص

( ) ابن حجر العسقلاني : فتح الباري بشرح صحيح البخاري / ، كتاب الأدب ، باب المداراة.

فالمداهنة في اللغة مأخوذة من دَهَن: دهَن المطر الأرض بلّها بلـــلاً يســـيراً كالدُّهن الذي يُدهن به الرأس، والإدْهان مثل الـــتّدهين( ). وهي وإن كانت تعني في اللغة: المداراة: والملاينة، وتَرك الجدّ( )، أو: المصانعة، والملاينة. كما جـــاء فـــي بعض المعاجم( ). فإن الناظر إلى قوله تعالى: (وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ) ( ) وإلـــى طائفة من تعريفاتها الإصطلاحية يتأكد عنده أنها ليست من المداراة في شيء.

قال ابن عباس - رضي الله عنهما - في تفسير قوله تعـــالى(وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ) أي: (ودوا لو ترخص لهم فيرخصون) ( )

فالآية تبين توجيه الله - سبحانه - لرسوله صلى الله عليه وسلم وتحذيره له من مصانعة كفار قريش وذلك بالسكوت عن عيب دينهم وآلهتهم، لأن مثـــل هـــذا الفعل يناقض المبدأ الأول الذي بعث الرسول - صلى الله عليه وسلم - مـــن أجلـــه وهو الدعوة إلى توحيد الله - سبحانه - وعبادته جاء فـــي تفســـير الســـعدي "إن المشركين طلبوا من النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يسكت عن عيـــب آلهـــتهم ودينهم، ويسكتوا عنه، ولهذا قال (وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ) أي توافقهم على بعض ما هم عليه، إما بالقول أو بالفعل أو بالسكوت عما يتعين الكلام فيه، (فيـــدهنون) ولكن إصدع بأمر الله. وأظهر دين الإسلام، فإن تمام إظهاره، بِنقض ما يضـــاده، وعَيْبِ ما يناقضه"( )

ولهذا قال الألوسي "لا ينبغي المداراة حيث يُخدش الدين، ويُرتكب المنكـــر، وتَسيءُ الظنون"( ). وفي هذا المعنى قال - صلى الله عليه وسلم - فـــي الحـــديث

( ) الأصفهاني (الراغب): المفردات في غريب القرآن / ص ، تحقيق صفوان عدنان ط ، الدار الشافعية - بيروت - م.
( ) المرجع السابق / ص .
( ) إبن منظور : لسان العرب / . الفيروز أبادي: القاموس المحيط /
( ) من سورة القلم ، الآية : ( )
( ) الطبري (محمد بن جرير) : جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري) / ، نشر مكتبة ومطبعة مصطفى البـــابي الحلبي وشركاه، مصر.
( ) السعدي (عبدالرحمن بن ناصر) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان / ص ، ط - اعتنى به تحقيقاً ومقابلة د/ عبدالرحمن بن معلا اللويحق، مكتبة الرشد، الرياض هـــ - م.
( ) الألوسي : روح المعاني /

الذي رواه أبو هريرة - رضي الله عنه - تجد من شرار الناس يوم القيامة عند الله ذا الوجهين، الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه" . قال ابن حجر "وإنما كان ذو الوجهين من شرار الناس لأن حاله حال المنافق، إذ هو متملق بالباطل وبالكذب، مدخل للفساد بين الناس، ولأنه يأتي كل طائفة بما يرضيها، فيظهر لها أنه منها ومخالف لضدها. وصنيعه نفاق، ومحضُ كذبٍ وخداع، وتَحيّل على الإطلاع على أسرار الطائفتين وهي مداهنة محرمة.

أما من يقصد بذلك الإصلاح بين الطائفتين فيأتي بكلام فيه صلاح الأخرى، ويعتذر لكل واحدة عن الأخرى، وينقل إليها ما أمكن من الجمل ويستر القبيح فهذا محمود. والمذموم من زين لكل طائفة عملها، ويقبحه عند الأخرى، ويذم كل طائفة عند الأخرى. فهذا من شرار الناس يوم القيامة عند الله. ( )

أما أقوال العلماء في تعريف المداهنة اصطلاحاً فإنها لا تتفق مع ما جاء في بعض معاني المداهنة، أنها تعني ، المداراة والملاينة، فهي أقرب إلى المعنى الوارد في الآية التي مر ذكرها. فمن تعريفاتها الإصطلاحية، الدالة على ذلك:

المداهنة: إظهار خلاف ما يُبطن، أو ما يُضمر. ( )

المداهنة: كالدّهان الذي يظهر على الشيء ويستر باطنه( )

هي معاشرة الفاسق، وإظهار الرضا بما هو فيه من غير إنكار عليه( ) .

وهي الكفر والكذب والنفاق ( )

وهي ترك الدين لصلاح الدنيا ( )

وإذا ما قارنا بين تعريف المداهنة، وتعريف النفاق والخداع نجد تشابهاً كبيراً بينها. فالنفاق : اسم مأخوذ من (نفقَ) التي تدل على الخروج، فالنفق : سرب في الأرض

( ) ابن حجر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري / ، كتاب الأدب (باب ما قبل في ذي الوجهين).
( ) ابن منظور: لسان العرب / ، الفيروز أبادي: القاموس المحيط/ ص
( ) ابن حجر: فتح الباري شرح صحيح البخاري /
( ) ابن حجر : فتح الباري شرح صحيح البخاري /
( ) ابن منظور: لسان العرب / ، الفيروزأبادي : القاموس المحيط / ص
( ) ابن حجر: فتح الباري /

له مخلص إلى مكان. أو المسلك النافذ الذي يمكن الخروج منه( ) وهو في اللغة من جنس الخداع والمكر وذلك بإظهار الخير وإبطان خِلافه".( )

أما تعريف النفاق اصطلاحاً فهو:

- إظهار الإيمان باللسان، وكتمان الكفر بالقلب( )
- ستر الكفر وإظهار الإيمان، أو الدخول في الإسلام من وجه، والخروج عنه من وجه آخر( ).
- التظاهر بالحق مع انطواء القلب على الباطل ( )

والخداع كذلك لا يخرج عن هذا المعنى. قال الراغب الأصفهاني، الخداع : "هو إنزال الغير عما هو بصدده، بأمرٍ يبديه على خلاف ما يخفيه" يقول تعالى : (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ)( )

والآيات والأحاديث في النفاق والخداع كثيرة. ولعظم خطرهم على المجتمع الإسلامي سميت سورة من سورة القرآن باسمهم، ونزلت الآيات تترى تفضحهم وتحذر من شرورهم وليس من شأن البحث استقصاءها وشرحها ، أذكر طرفاً منها: يقول تعالى :(وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ)( )

( ) ابن منظور: لسان العرب / ، الفيروز أبادي : القاموس المحيط / ص ، ابن فارس (أحمد) معجم مقاييس اللغة. تحقيق عبدالسلام هارون / ص ط ، دار الجيل . بيروت - القاهرة م

( ) ابن رجب الحنبلي : (عبدالرحمن بن علي). جامع العلوم والحكم/ ص ، دار المعرفة ، بيروت.

( ) الجرجاني : (علي بن محمد) التعريفات / ، دار الكتب العلمية، بيروت ، هـ

( ) الأصفهاني (الراغب) المفردات في غريب القرآن / ص . ابن منظور: لسان العرب /

( ) الحائري: (عبدالمجيد حسن) الشيعة والعقائد / ص ، مطبعة الأداب ، النجف الأشرف ، بغداد م.

( ) الأصفهاني (الراغب) : المفردات في غريب القرآن / ص ، والآية رقم من سورة البقرة.

( ) من سورة البقرة، الآية ( ).

ويقول تعالى (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاؤُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا) ( )

وغير ذلك من الآيات التي تصف المنافقين بالكذب ونقض العهد، والصد عن سبيل الله، وزخرفة الكلام، والإهتمام بإصلاح المظهر مع فساد المخبر، وموالاة أعداء الإسلام.. الخ.

وهناك أحاديث كثيرة مؤكدة لما جاء في القرآن عن النفاق منها على سبيل المثال، ما رواه عبدالله بن عمر - رضي الله عنهما - أنه قال : "قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً. ومن كانت فيه خلة منهن كانت فيه خِلة من نفاق. حتى يَدعها: إذا حدّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا وعد أخلف، وإذا خاصم فجر" ( )

وأخرجه النسائي بسند صحيح عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال " آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أتمن خان" ( )

وعن تذبذب المنافق في المواقف ، قال - صلى الله عليه وسلم - في الحديث الذي رواه نافع عن ابن عمر أنه قال: قال النبي - صلى الله عليه وسلم - "مثل المنافق كالشاة العائرة بين الغنمين، تعير إلى هذه مرة ، وإلى هذه مرة" ( )

( ) من سورة النساء ، الآية ( )

( ) ابن حجر العسقلاني : فتح الباري شرح صحيح البخاري /

( ) الألباني (محمد ناصر الدين) صحيح سنن النسائي باختصار السند / رقم ، ط ، المكتب الإسلامي باشراف زهير الشاويش، بيروت ، م.

( ) النيسابوري (مسلم بن الحجاج): صحيح مسلم بشرح النووي / ، دار الكتب العلمية ، بيروت.

الفرق بين المداهنة والنفاق والخداع ، والمداراة

بعد هذا العرض لمعنى المداراة، والمداهنة والنفاق والخداع، لغة واصطلاحاً يلمح الباحث شيئاً من القواسم المشتركة بينها، وهو إظهار أمر والباطن بخلافه. إلاّ أنه يرى بعد النظر والتدقيق أن ما تنطوي عليه المداراة يختلف عما تنطوي عليه شبيهاتها في الظاهر، ومن الفروق بينهما بإجمال ما يلي:

- المداهنة والنفاق والخداع فيها نفاق اعتقادي، ونفاق عملي، فالأول: مثل إظهار الإسلام خوفاً ورهبة لحقن الدماء، وسلامة الأموال والأعراض. والثاني: مثل الكذب عند الحديث، وإخلاف الوعود، ونقض المواثيق، وخيانة الأمانات، والفجور عند المخاصمات. ومثل هذا لا ينطبق على المداراة، فالمداري، مسلمُ ظاهرا وباطناً غير آبه مما يحصل له في سبيل هداية الآخرين وجلبهم إلى الإسلام، فتراه ودوداً ، عطوفاً ، حسن اللقيا، حسن العِشرة ، صادقاً في أقواله وأعماله، متعالٍ عن أعراض الدنيا الزائلة صابراً محتسباً لما يلاقيه من الآخرين .. الخ.
- المداهنة والنفاق والخداع تقوم على الشكوك والشبهات والضلالات والشهوات، والمعاصي. أما المداراة فتقوم على الإيمان الحقيقي الذي هو مواطأة القلب واللسان معا، لذا فأصحابها بعيدون كل البعد عن الشكوك والشبهات والمعاصي.
- في المداهنة والنفاق والخداع، حرص كبير على المصالح الدنيوية فأصحابها إما أن يحصلوا على مرادهم، أو يسلموا لا لهم ولا عليهم. أما المداراة ففيها حرص على المصالح الأخروية وتقديمها على المصالح الدنيوية، وإن أوذوا في سبيل ذلك.
- أهداف المداهنين والمنافقين والمخادعين، الإفساد في الأرض بدعوى الإصلاح، وأكبر إفساد ، كفرهم بآيات الله ، وصدهم عن سبيل الله،

وموالاتهم أعداء الإسلام المحاربين لله ورسوله. أما المدارون فهدفهم واضح بيّن، وهو الإصلاح في الأرض، وأي إصلاح أعظم من دعوة الغير إلى الإيمان بالله عز وجل، ونبذ الشرك، والدعوة إلى الأخلاق الفاضلة، وكف الأذى عن المسلمين، وصون أموالهم وأعراضهم.

ومن هنا يلمح الباحث دقة أقوال العلماء في التفريق بينها وبين المداراة، فقالوا المداهنة حرام ، والمداراة مندوبة وأنها سنة مشروعة. فهم لم ينظروا إلى بعض المعاني اللغوية المشتركة بينها، مثل الملاينة والمصانعة، وإنما نظروا إلى السبب الباعث لها، والهدف المنشود منها. فإذا كان أخروياً فهو مشروع، وإن كانت إحدى معانيها في اللغة، فمعظم معاني التقيّة في اللغة تدور حول الحذر، والخوف، والحماية، وإظهار أمر والباطن بخلافه.

وفي الاصطلاح فلها أكثر من تعريف تدور كلها حول إظهار بعض الأمور بخلاف ما يعتقده الإنسان ليدفع الأذى عن دينه، ونفسه، وعرضه، وماله من شر الأعداء حالة الإكراه. فهي إذن حالة طارئة اختلف العلماء في حكمها بين الجواز والحرمة والوجوب ( ) .

أما المداراة فمطلوبة في كل حال تتسع لتشمل حياة المسلم كلها في علاقته مع الآخرين، من قريب أو بعيد، أو صديق أو عدو، في حال الإضطرار أو غيره، فهي إذن حالة مستديمة مندوبة، لا طارئة في حالة الإكراه فقط.

وبعد هذا العرض لمعنى المداراة لغة واصطلاحاً، والفرق بينهما وبين المداهنة والنفاق والخداع والتقيّة ننتقل إلى بيان مشروعية المداراة في الإسلام. ويظهر ذلك من خلال الأدلة التالية:

( ) للباحث بحث بعنوان (التقيّة بين أهل السنة ومخالفيهم) عرض لهذا الموضوع.

-

ليس هناك أدلة صريحة في القرآن الكريم، تذكر لفظ المداراة، إلا أن الناظر في الكتاب الكريم والمطلع على بعض تفاسيره، يمكنه الإهتداء إلى بعض الآيات التي تحث على القول الحسن، والملاينة والملاطفة، وحسن الخلق، والمعاشرة.. وغير ذلك من الأخلاق ، المطلوبة من المسلم عند معاملته للآخرين، طمعاً في هدايتهم إلى الطريق المستقيم، وإبعادهم عن الوقوع في المنكرات أو الإستمرار فيها، مما ينعكس أثره على الأفراد والجماعات، ومن هذه الآيات:

أولاً: يقول تعالى : (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرائيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ) ( )

فقوله تعالى (وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً) جاءت في سياق ما أمر الله به في كل شريعة من الشرائع، من عبادته - سبحانه - وحده، والإحسان إلى الوالدين والأقارب واليتامى والمساكين. وختمت الآية بالأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة. "وهذه الشرائع من أصول الدين التي أمر الله بها في كل شريعة لاشتمالها على المصالح العامة في كل زمان ومكان فلا يدخلها نسخ، كأصل الدين، ولهذا أمرنا الله بها في قوله : (وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً) ( )

ويقول القرطبي في تفسيره "ينبغي للإنسان أن يكون قوله للناس ليّناً، ووجهه منبسطاً طَلْقاً مع البَر والفاجر، والسيء والمبتدع، من غير مداهنة، ومن غير أن يتكلم معه بكلام يظن أنه يرضي مذهبه، لأن الله تعالى قال لموسى وهارون (فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً)فالقائل ليس بأفضل من موسى وهارون. والفاجر ليس بأخبث من فرعون، وقد أمرهما الله تعالى باللين معه." ( )

( ) من سورة البقرة ، الآية

( ) السعدي (عبدالرحمن بن ناصر): تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان / ص .

( ) القرطبي (محمد بن أحمد) الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) / ، دار إحياء التراث العربي، بيروت م.

والقول الحسن؛ أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وتعليمهم العلم، وبذل السلام، والبشاشة، وغير ذلك من كل كلام طيب. ولذلك فإن من أدب الإنسان الذي أدب الله به عباده، أن يكون الإنسان نزيها في أقواله وأفعاله غير فاحش ولا بذيء ولا شاتم، ولا مخاصم، بل يكون حسن الخلق واسع الحِلم مجاملاً لكل أحد، صبوراً على ما يناله من أذى الخلق، امتثالاً لأمر ربه ورجاء ثوابه ومغفرته ( )وعن عطاء قال. قوله عز وجل: (وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً) أي الناس كلهم؛ المشرك وغيره. وعن هشام بن عروة قال عطس نصراني طبيب عند أبي، فقال له : رحمك الله . فقيل له: إنه نصراني ، قال أبي: رحمةُ الله على العالمين ( )

ولقد اختلف العلماء في وجوب القول الحسن . هل هو مع المؤمنين، أو مع الكفار والفساق؟ وهل هو خاص في الدعوة إلى الله ، أو أنه يشمل الناس جميعا، فبقي على عمومه ولا يحتاج إلى التخصيص؟ والصواب أنه باق على ظاهره ولا حاجة إلى التخصيص. والدليل عليه، أن موسى وهارون - عليهما السلام - مع جلال منصبيهما أُمرا بالرفق واللين مع فرعون. وكذلك محمد - صلى الله عليه وسلم - مأمور بالرفق وترك الغلظة. يقول تعلى : (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)( ) ويقول تعالى أيضاً (وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ) ( ) ( )

وقال أهل التحقيق، كلام الناس مع الناس إما أن يكون في الأمور الدينية، أو في الأمور الدنيوية، فإن كان في الأمور الدينية، فإما أن يكون في الدعوة إلى الإيمان ، وهو مع الكفار، وفي الدعوة إلى الطاعة وهو مع الفاسق، أما الدعوة إلى الإيمان فلا بد وأن تكون بالقول الحسن، كما قال تعالى لموسى

( ) السعدي (عبدالرحمن): تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان /

( ) ابن أبي الدنيا (عبدالله بن محمد) : مداراة الناس / ص ، ط ، تحقيق محمد خير رمضان، دار ابن حزم، بيروت م.

( ) من سورة النحل، الآية ( ).

( ) من سورة الأنعام ، الآية ( ).

( ) الرازي: محمد بن عمر بن الحسين: التفسير الكبير (مفاتيح الغيب / ، ط ، دار الكتب العلمية، بيروت، م.

وهارون -عليهما السلام - في دعوتهما لفرعون (فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً) ( ) مع نهاية كفر فرعون وتمرده وعتوه على الله - سبحانه -. أما دعوة الفساق فالقول الحسن فيه معتبر كما قال تعالى : (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ ... الآية) .

وأما في الأمور الدنيوية، فمن المعلوم بالضرورة أنه إذا أمكن التوصل إلى الغرض بالتلطف من القول الحسن لم يَحسن سواه. فثبت أن جميع آداب الدين والدنيا داخلة تحت قوله - سبحانه وتعالى - (وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً) ( )

ثانيا: يقول تعالى(وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا)( ) التحيّة هي اللفظ الصادر من أحد المتلاقيين، على وجه الإكرام والدعاء، وما يقترن بذلك اللفظ من البشاشة ونحوها. وأعلى أنواع التحية ما ورد به الشرع، من السلام ابتداءً وردّا فأمر الله المؤمنين أنهم إذا حييوا بأي تحية كانت، أن يردوها بأحسن منها لفظاً وبشاشةً، أو مثلها في ذلك. ومفهوم ذلك، النهي عن عدم الرد بالكلية، أو ردُّها بدونها. ( )

فالآية كما يرى ابن عباس - رضي الله عنهما - عامة تشمل الخلق جميعاً. فعنه - رضي الله عنه، قال: "من سلم عليك من خلق الله فاردد عليه، وإن كان مجوسياً، ذلك بأن الله -عز وجل - يقول : (وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ) ( )

وليس من شأن البحث الخوض في اختلاف العلماء في فهم هذه الآية ، ولكل أدلته حول من يُرد عليه أو لا يرد، مع اتفاقهم على ردها أو أحسن منها إلاّ في الحالات غير المأمور بها " على مشتغل بقراءة القرآن، واستماع خُطبة، أو مصل أو نحو ذلك من الأمور" ( ) والمهم هنا هو رد التحية المشروعة مقترنة بالبشاشة والبشر وطلاقة الوجه، وهذا مستفاد من قوله سبحانه (بأحسن منها).

( ) من سورة طه، الآية ( ).
( ) الرازي: التفسير الكبير ، / .
( ) من سورة النساء، الآية ( ).
( ) السعدي (عبدالرحمن) : تيسير الكريم الرحمن / ص .
( ) الطبري (محمد بن جرير): جامع البيان عن تأويل آي القرآن / ، دار المعرفة، بيروت، لبنان. وابن أبي الدنيا (عبدالله): مداراة الناس / ص .
( ) السعدي : (عبدالرحمن) تيسير الكريم الرحمن / ص .

ثالثاً: يقول تعالى : (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ) ( )

أمر الله - سبحانه - نبيه بمكارم الأخلاق . فأمر أمته بنحو ما أمره الله به. ومحصلها، الأمر بحسن المعاشرة مع الناس، وبذل الجهد في الإحسان إليهم، والإغضاء عنهم. روى جعفر الصادق - رضي الله عنه - أنه قال "ليس في القرآن آية أجمع بمكارم الأخلاق منها" وعن عبدالله بن الزبير - رضي الله عنه - أنه قال "ما أنزلها الله إلا في أخلاق الناس" وعن جابر - رضي الله عنه - قال: لما نزلت (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ.. الآية) سأل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - جبريل - عليه السلام -. فقال: لا أعلم حتى أسأل ثم رجع فقال: "إن ربك يأمرك أن تصِل من قطعك، وتعطِ من حرمك وتعفو عمن ظلمك" ( )

فهذه الآية جامعة لحسن الخلق مع الناس، وما ينبغي في معاملتهم، فالذي ينبغي أن يُعامل به الناس، هو ما سمحت به نفوسهم، وما سهل عليهم من الأعمال والأخلاق فلا يكلفوا بما لا تسمح به طبائعهم، أو الشاق من الأخلاق، بل يَشكر من كل أحد ما قابله به، من قول وفعل جميل، أو ما هو دون ذلك، ويتجاوز عن ضعفهم، ونقصهم وأخطائهم، فلا يتكبر على الصغير لصغره، ولا ناقص العقل لنقصه، ولا الفقير لفقره، بل يعامل الجميع باللطف والمقابلة بما تقتضيه الحال، وتنشرح له صدورهم. ( ) كل أولئك في المعاملات الشخصية، لا في العقيدة الدينية، ولا في الواجبات الشرعية. فليس في عقيدة الإسلام ولا شريعة الله يكون التغاضي والتسامح، ولكن في الأخذ والعطاء، والصحبة والجوار. وبذلك تمضي الحياة سهلة لينة، فالإغضاء عن الضعف البشري، والعطف عليه، والسماحة معه، واجب الكبار الأقوياء تجاه الصغار الضعفاء. وكل أصحاب الدعوة مأمورون بما أمر به الرسول

( ) من سورة الأعراف ، الآية: (   ).
( ) ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري / كتاب التفسير (باب : خذ العفو.. الآية) .
( ) قطب (سيد) في ظلال القرآن / ، ط ، دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت م. السعدي (عبدالرحمن) : تيسير الكريم الرحمن / ص .

- صلى الله عليه وسلم - . فالتعامل مع النفوس البشرية لهدايتها، يقتضي سعة صدر، وسماحة طبع، ويسرا وتيسيرا في غير تهاون ولا تفريط في دين الله ( ) .

والجزء الثاني من الآية - كما يرى الباحث - فيه دلالة واضحة أيضاً على المداراة وهو قوله -سبحانه- (وأمر بالعرف) أي بكل قول حسن وفعل جميل، وخلق كامل للقريب والبعيد، فاجعل ما يأتي إلى الناس منك؛ إما تعليم علم، أو حث على خير من صلة رحم، أو برّ والدين، أو إصلاح بين الناس، أو نصيحة نافعة، أو زجر عن قبيح ومنكر، أو إرشاد إلى تحصيل مصلحة دينية أو دنيوية ( ) .

ومن المداراة الواردة فيها أيضاً، قوله سبحانه (وأعرض عن الجاهلين) أي أعرض عن أهل الظلم، وتنزه عن منازعة السفهاء ، ومساواة الجهلة الأغبياء( ) والإعراض عنهم يكون بالترك والإهمال، والتهوين من شأن ما يجهلون به من التصرفات والأقوال، والمرور بها مر الكرام، فمن آذاك بقول أو فعل لا تؤذه ومن حرمك لا تحرمه، ومن قطعك فَصِله، ومن ظلمك فاعدل فيه( ) .

وكذلك ينبغي للمسلم أن لا يدخل مع الجاهلين في جدال لا ينتهي إلى شيء إلا الشدّ والجذب، وإضاعة الوقت والجهد على عكس السكوت عنهم، والإعراض عن جهالتهم فقد ينتهي إلى تذليل نفوسهم، وترويضها، ورجوعها إلى الحق والصواب ( ) .

رابعا: يقول تعالى مخاطباً رسوله - صلى الله عليه وسلم - (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ) ( )

والذي يفهم من هذا الخطاب الكريم، أن الأخلاق الحسنة من الرئيس في الدين، تجذب الناس إلى دين الله، وترغبهم فيه، مع ما لصاحبه من المدح والثواب

( ) قطب (سيد) ، في ظلال القرآن /
( ) السعدي (عبدالرحمن): تيسير الكريم الرحمن / ص
( ) القرطبي (محمد) : الجامع لأحكام القرآن /
( ) السعدي (عبدالرحمن): تيسير الكريم الرحمن/ ص
( ) قطب (سيد) في ظلال القرآن /
( ) من سورة آل عمران ، الآية

الخاص، والأخلاق السيئة من الرئيس في الدين تنفر الناس عن الـــدين، وتبغضـــهم فيه، مع ما لصاحبها من الذم والعقاب. فإذا كان هذا الخطاب لرسول الله - صـــلى الله عليه وسلم - ، أليس من الواجب علينا الاقتداء بأخلاقه الكريمة، ومعاملة الناس بما يعاملهم به من اللين وحسن الخلق والتأليف، امتثالاً لأمر الله، وجذباً لعبـــاد الله لدين الله ( )

خامسا: ويقول تعالى في سورة التوبة مخاطباً رسوله - صلى الله عليـــه وســـلم - كيف يكون تعامله مع أصحابه ليطمئنوا إليه (وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ) ( )

أي : أدخل السرور على قلوب المؤمنين بالكلام الطيب اللين، والدعاء لهم ونحـــو ذلك مما يكون فيه طمأنينتهم وسكون قلوبهم( ) .

سادساً: قال تعالى على لسان إبراهيم - عليه السلام - (يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً) ( )

بهذا اللطف في الخطاب يتوجه إبراهيم - عليه السلام - إلى أبيه المشـــرك يحاول أن يهديه إلى الخير الذي هداه الله إليه، وعلمه إياه وهو يتحبب إليـــه بأحـــب الألفاظ وأرقّها لتصل إلى القلوب القاسية ( ) فإنه لم يقل يا أبت أنا عـــالم وأنـــت جاهل، وإنما أتى بصيغة تقتضي أن عندي وعندك علماً، وأن الذي وصل إلـــيّ لـــم يصل إليك، ولم يأتك. فينبغي لك أن تتبع الحجة وتنقاد لها. ( )

سابعاً: ويقول تعالى أيضا في نفس السورة (قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً * قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً) ( ) والمعنى أن إبراهيم

( ) السعدي (عبدالرحمن) تيسير الكريم الرحمن/ ص .
( ) من سورة التوبة ، الآية: ( ).
( ) السعدي (عبدالرحمن) : تيسير الكريم الرحمن/ ص .
( ) من سورة مريم : الآية ( ).
( ) قطب (سيد) : في ظلال القرآن /
( ) السعدي (عبدالرحمن): تيسير الكريم الرحمن / ص
( ) من سورة مريم الآيتان :

عليه السلام لما دعا أباه إلى التوحيد، وذكر الدلالة على فساد عبادة الأوثان. وأردف تلك الدلالة بالوعظ البليغ، وأردف كل ذلك مقروناً باللطف والرفق. قابل أبوه وعظه بالسفاهة حيث هدده بالضرب والشتم، وقابل رفقه بالعنف( ). يرى الباحث أن فعل إبراهيم - عليه السلام - كان مداراة لوالده المشرك "فلم يقابله بالشتم والسبّ، وبما يكره بل قابله بالصبر والصفح، والدعاء له بالهداية والمغفرة. وقد أمرنا الله عز وجل باتباع ملة إبراهيم، أي سلوك طريقه في الدعوة إلى الله بطريق العلم والحكمة واللين والسهولة والصبر على ذلك، وعدم السآمة والملل، والقنوط من المدعو، والصبر على ما يناله من أذى الخلق بالقول والفعل، ومقابلة ذلك بالصفح والعفو، والإحسان القولي والفعلي". ( )

ثامنا: يقول تعالى لموسى وأخيه - عليهما السلام - عند ذهابهما لدعوة فرعون (اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى) ( )

وهاتان الآيتان فيهما دلالة واضحة على معنى المداراة وهي: القول اللين اللطيف الذي لا خشونة فيه ولا غلظة، لأن "تليين القول مما يكسر سَوْرة عناد العتاة ويليّن قسوة الطغاة"( ). "والقول اللين داعٍ لذلك، والقول الغليظ منفرٌ عن صاحبه"( )

وقد اختلف في القول الليّن الذي أمرا به - عليهما السلام - على أقوال: -

- لا تعنفاه في قولكما وأرفقا به في الدعاء ويدل عليه قوله تعالى في سورة النازعات (فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى * وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى) وهذا ظاهر غاية الظهور في الرفق والدعاء.
- كَنِّياه : أي مناداته ومخاطبته بالكنية التي يحبها.
- عِداه شباباً لا يهرم بعده، وملكا لا يُنزع منه إلا بالموت. ( )

( ) الرازي (محمد بن عمر بن الحسين: التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) / ، ط ، دار الكتب العلمية، بيروت م.
( ) السعدي (عبدالرحمن): تيسير الكريم الرحمن / ص .
( ) من سورة طه، الآيتان .
( ) الألوسي (محمود): روح المعاني/ / .
( ) السعدي (عبدالرحمن) : تيسير الكريم الرحمن / ص
( ) الألوسي (محمود) : روح المعاني / ، والآيتان من سورة النازعات رقم ( ).

- قولا له إني إلى العفو والمغفرة أقرب مني إلى الغضب والعقوبة.
- أو قولا له قل : لا إله إلا الله واعذرا إليه.
- أو قولا له : إن لك رباً معاداً ، وإن بين يديك جنة وناراً. ( )

ومعنى الآيتين: أن الله -سبحانه- خاطب موسى أولا بالاستفهام الذي معناه العَرْض كما ورد في سورة النازعات (اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى * وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى) والعَرْض : كما يقول الرجل لضيفه هل لك أن تنزل بنا - ولله المثل الأعلى - ثم أردف عرضك بالكلام الرقيق لتستدعيه باللطف في القول، وتستنزله بالمداراة عن عتوه( ). كما أمر بذلك في سورة طه في الآيتين السابقتين. ونستفيد من هذه الآيات الفوائد التالية:

- مخاطبة من كان مثل فرعون في العتو والاستكبار والبطش باللين واللطف والقول الحسن. فنبي الله موسى - عليه السلام - وهو صفوة الله من خلقه إذ ذاك أمر أن يخاطب فرعون بالملاطفة واللين مع غاية استكباره وعتوه( ).
- القول اللين: لا يثير العزة بالإثم، ولا يهيج الكبرياء الزائف الذي يعيش به الطغاة، ومن شأنه أن يوقف القلب فيتذكر ويخشى عاقبة الطغيان( ). فيكون أوقع في النفوس وأبلغ وأنجع، كما قال تعالى (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) ( )
- فيها دليل على جواز الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأن ذلك يكون باللين من القول لمن معه القوة. وضمنت له العصمة( ).

( ) القرطبي (محمد): الجامع لأحكام القرآن / . وابن كثير (اسماعيل بن عمر) : تفسير القرآن العظيم / - تحقيق سامي السلامة، ط ، دار طيبة للنشر والتوزيع ، الرياض، م.

( ) حوى (سعيد): الأساس في التفسير / ، ط ، دار السلام للطباعة والنشر - القاهرة ، م. والآية رقم ( ) من سورة النازعات.

( ) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم، / . القرطبي (محمد) الجامع لأحكام القرآن / .

( ) قطب (سيد) في ظلال القرآن : /

( ) ابن كثير (اسماعيل): تفسير القرآن العظيم / ، والآية ( ) من سورة النحل.

( ) القرطبي (محمد) الجامع لأحكام القرآن / ، الطباطبائي : (محمد حسين) الميزان في تفسير القرآن / ، ط مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت ، هـ.

- الشدة والقوة والغلظة في الدعوة قد تــؤدي إلـــى نتــائج ســلبية للـــداعي وجماعته( ).

ويرى الباحث أن هاتين الآيتين وأمثالهما تدل على المداراة ، ولا تــدل علـــى التقية، كما ذهب إليه بعضهم، مثل الحائري والطباطبائي وغيرهما ممن لا يفرقــون بين التقية والمداراة ويعتبرونهما شيئاً واحداً، وحالة دائمة لا طارئة. ( )

تاسعاً: ويقول تعـــالى **(وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) * قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ)** ( )

والمعنى: قال الله سبحانه لموسى - عليه السلام - عندما كلّمه ونبأه وأرسله، إذهب إلى القوم الظالمين الذين تكبروا في الأرض وعلوا على أهلهـــا، وأدعـــى كبيـــرهم الربوبية، وقل لهم بلين ولطف، ألا تتقون الله الذي خلقكم ورزقكم، فتتركون ما أنتم عليه من الكفر( ).

فالاستفهام الوارد في الآية (ألا تتقون) المتضمن الترغيـــب فـــي التقـــوى. وتحبيبها إليهم يدل على ضرورة مخاطبة الغير عند دعوتهم إلى الله - ســـبحانه - باللين واللطف.

ولو نظرنا إلى باقي الآيات المتعلقة بدعوة الأنبيـــاء والمرســـلين - علـــيهم السلام - لأقوامهم ، ليذروا ما هم عليه من الشرك، والمعاملة السيئة ، والأخـــلاق المنكرة ، نجد أنهم - عليهم السلام - خاطبوهم بالرفق واللين، والتعطف، والحدب عليهم، لإخراجهم مما هم فيه، ولم يخاطبوهم بالغلظة والشدة والقسوة عليهم.

عاشراً: ويقول تعالى **(وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)** ( )

في هذه الآية أمر الله المؤمنين بمجادلة أهل الكتاب بالتي هـــي أحســـن أي بحسن خلق، ولطف ولين كلام، ودعوة إلى الحق وتحسينه، ورد علـــى الباطـــل ، والتنفير منه وتقبيحه أو بأي طريق رجاء إجابتهم، واستمالة لقلوبهم، لا على طريق

( ) الحائري (عبدالمجيد) : الشيغة والعقائد / ص .

( ) الحائري (عبدالمجيد) : الشيعة والعقائد / ص . الطباطبائي (محمد) الميزان في تفسير القرآن / .

( ) من سورة الشعراء ، الآيتان ( ).

( ) السعدي (عبدالرحمن) : تيسير الكريم الرحمن / ص

( ) من سورة العنكبوت : الآية ( ).

الإغلاظ والمخاشنة كالقدح في شيء من الكتب الإلهية، أو بأحد من الرسل، بل يقارعهم الحجة بالحجة والدليل بالدليل، ليلزمهم الإقرار بالقرآن وبالرسول، وبما يدعو إليه من الإيمان بهذا الدين( )

الحادي عشر : يقول تعالى (وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ) ( )

ومن المداراة، عدم مقابلة المسيء بجنس عمله. فإذا أراد إزالة عداوته ، لا بد من الإحسان إليه مع الصبر على ما يكره. ومما جاء في تفسيرها: أي لا يستوي فعل الحسنات والطاعات لأجل رضا الله تعالى ، ولا فعل السيئات والمعاصي التي تسخطه ولا ترضيه، ولا يستوي الإحسان إلى الخلق ولا الإساءة إليهم، لا في ذاتها ولا في وضعها ، ولا في جزائها. ثم أمر بإحسان خاص، له موقع كبير. وهو الإحسان إلى من أساء إليك فقال (إدفع بالتي هي أحسن) فإذا أساء إليك مُسيء من الخلق، خصوصاً من له حق كبير عليك كالأقارب، والأصحاب ونحوهم ، إساءة بالقول أو بالفعل، فقابله بالإحسان إليه، فإن قطعك فصِله، وإن ظلمك فاعف عنه، وان تكلم فيك غائباً أو حاضراً فلا تقابله ، بل اعف عنه، وعامله بالقول اللين. وإن هجرك وترك خطابك فطيّب له الكلام، وابذل له السلام. فإذا قابلت الإساءة بالإحسان حصل فائدة عظيمة وخير عميم ، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم( ) . وعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال في قوله تعالى(وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ... الآية) الرجل يشتمه أخوه، فيقول ، إن كنت صادقاً فغفر الله لي. وإن كنت كاذباً فغفر الله لك. وكان بكر بن عبدالله يقول" ما عليك أن تنزل الناس منزلة أهل البيت، فننزل من كان أكبر منك منزلة أبيك، وتنزل من كان مِنهم قَرينك

( ) القرطبي (محمد): الجامع لأحكام القرآن / . السعدي (عبدالرحمن) تيسير الكريم الرحمن / ص
( ) من سورة فصلت الآيتان ( ).
( ) السعدي (عبدالرحمن : تيسير الكريم الرحمن / ص

منزلة أخيك. وتنزل من كان أصغر منك منزلة ولدك؟ فأي هؤلاء تحب أن يُهتك سِترة؟ ( )

يتبين لنا بعد هذا البيان أننا مطالبون بمعاملة الآخرين معاملة حسنة امتثالاً لأمر الله - سبحانه - واقتداءً بالأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - والباحث على الرغم من إيراده لهذه الآيات وتفسيرها للدلالة على مشروعية المداراة، يرى أن دلالتها عليها بالمفهوم اللغوي والإصطلاحي - كما مر في أول البحث - غير قوي. إلا أنه أوردها استئناساً بها وتقديراً لبعض آراء العلماء الذين قالوا باستحبابها. أما كونها سنة مشروعة مندوب إليها فسيظهر من خلال الأحاديث النبوية الشريفة التي تحث المسلم على فعلها.

-

حفلت السنة النبوية بأحاديث كثيرة تتعلق بالمداراة من حيث فضلها وأهميتها في حياة المسلم الدنيوية والأخروية، فجاء بعضها عاماً، والبعض الآخر خاصاً، وهي بمجموعها تبين مشروعية المداراة في الإسلام. ويجدر بنا قبل ذكر هذه الأدلة أن نقول:

إن الناظر في الأحاديث النبوية الشريفة التي ترغب في الخير يجد أنها ليست محصورة في فعله بجانبيه المعنوي والمادي للمسلم فقط بل تتسع دائرته لتشمل جميع الناس على اختلاف مللهم ونِحلهم. ومن المعلوم ضرورة لكل عاقل أن كل إنسان قادر في أكثر أحواله على فعل الخير، ومن الممكن القيام به بدون مشقة أو عناء، ولا يكلفه ذلك إلا بسمة أو ضحكة، أو كلمة طيبة، أو تنازلاً عن عَرَض زائل، أو إمساكاً عن الشر وصبرا على الأذى.. إلى غير ذلك من وجوه المعروف. ولقد اعتبر الإسلام ما يقوم به المسلم من هذه الأقوال والأفعال صدقة يؤجر عليها. والأحاديث في هذا الموضوع كثيرة، أذكر منها ما يلي:

( ) ابن أبي الدنيا: مداراة الناس/ ص

- فعن أبي موسى الأشعري عن أبيه عن جده قال: قال النبي - صلى الله عليه وسلم - "على كل مسلم صدقة، قالوا: فإن لم يجد؟ قال: فيعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق. قالوا: فإن لم يستطع، أو لم يفعل؟ قال: فَيعينُ ذا الحاجة الملهوف. قالوا: فإن لم يفعل؟ قال: فليأمر بالخير. أو قال بالمعروف. قالوا: فإن لم يفعل؟ قال: فليمسك عن الشر. فإنه له صدقة" ( )
- وعن جابر بن عبدالله - رضي الله عنهما - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال "كل معروف صدقة"، قال ابن حجر في شرحه للحديث: أخرجه مسلم من حديث حذيفة وأخرجه الدارقطني، والحاكم من طريق عبدالحميد بن الحسن الهلالي عن ابن المنكدر مثله. وزاد في آخره "وما أنفق الرجل على أهله كتب له به صدقة، وما وقى به المرء عِرضه فهو صدقة" . وقال أيضاً: "طيب الكلام من جليل عمل البر لقوله تعالى (ادفع بالتي هي أحسن) والدفع قد يكون بالقول كما يكون بالفعل".( )
- وعن جابر بن عبدالله قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - "كل معروف صدقة. وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلْق". ( )

قال ابن بطّال في شرحه لهذا الحديث "كل شيء يفعله المرء أو يقوله من الخير، يكتب له به صدقة. والمعروف: إسم كل فعل يُعرف حُسنه بالشرع والعقل معاً. وفيه إشارة إلى أن الصدقة لا تنحصر في الأمر المحسوس منه بل كل واحد قادر على أن يفعلها في أكثر الأحوال بغير مشقة. ( )

ولحسن الخلق شأن عظيم في الإسلام ، فقد عدّ الرسول - صلى الله عليه وسلم - صاحب الخلق الحسن من أكمل المؤمنين إيماناً.

( ) ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري / كتاب الأدب (باب كل معروف صدقة).
( ) المرجع السابق / و / السخاوي (محمد بن عبدالرحمن) : المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة/ ص ، حديث رقم ، دار الهجرة - بيروت م.
( ) الترمذي (محمد بن عيسى) صحيح البخاري / ، شرح ابن العربي، كتاب البر والصلة (باب ما جاء في طلاقة الوجه وحسن البشر، وقال عنه (حديث حسن) ، دار الكتاب العربي - بيروت ، بدون تاريخ.
( ) ابن حجر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري / كتاب الأدب (باب كل معروف صدقة).

- فعن جابر عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: "ألا أخبركم بأكملكم إيمانا؟ أحاسنكم أخلاقاً، الموَطِّؤون أكنافاً، الذين يألفون ويؤلفون"( ) والموطئون : من التوطئة، وهي التمهيد والتذليل. والأكناف : الجوانب. يعني الذين جوانبهم وطيئة يتمكن فيها من يصاحبهم ولا يتأذى، وهم ألهيّنون الليّنون، الذين يحسنون المعاملة. ( )

فعن أسامة بن شريك قال: شهدتُ الأعراب يسألون النبي - صلى الله عليه وسلم - : أعلينا حرام في كذا؟ أعلينا حرام في كذا؟ إلى أن قالوا: يا رسول الله : ما خير ما أعطي العبد؟ قال: "الخلق الحسن" ( )

والأحاديث في حسن الخلق كثيرة. ليس من شأن البحث استقصاءها هنا. وقد بيّن الباحث غرضه من ذكر بعضها.

أما الأدلة من السنة النبوية على مشروعية المداراة فسأستهلها بالحديث الذي اعتبره العلماء أصلاً في مشروعيتها. وهو ما روته أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - بخصوص الرجل الشرير الأحمق، الذي استأذن على الرسول - صلى الله عليه وسلم - فنعته بقوله (بئس أخو العشيرة) فلما دخل تلقاه الرسول - صلى الله عليه وسلم - بطلاقة الوجه والانبساط ثم ألان له الكلام.

- فعن عروة بن الزبير أن عائشة أخبرته أنه أستأذن رجل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال إئذنوا له بئس أخو العشيرة . أو ابن العشيرة. فلما دخل ألان له الكلام. قلت يا رسول الله : قلت الذي قلت ثم ألنتَ له

( ) البيهقي (أحمد بن الحسين): شعب الإيمان / رقم الحديث ، ط ، تحقيق (أبو هاجر محمد السعيد، دار الكتب العلمية، بيروت هـ - م.

( ) ابن الاثير (المبارك بن محمد الجزري): النهاية في غريب الحديث والأثر / . تحقيق طاهر الزاوي وزميله. شرح وطبع دار الكتاب اللبناني - بيروت، ودار الكتاب المصري - القاهرة - ابن منظور: لسان العرب /

( ) الألباني (محمد ناصر الدين): صحيح سنن ابن ماجه / ، رقم الحديث ، ط ، توزيع المكتب الاسلامي - بيروت م.

الكلام. قال: "أي عائشة. إن شر الناس من تركه الناس ، أو ودَعــه النــاس، إتقاء فحشه"( )

وفي رواية أخرى عنها - رضي الله عنها - : أن رجلاً استأذن على النبــي - صلى الله عليه وسلم - فلما رآه قال: بئس أخــو العشــيرة، وبــئس ابــن العشيرة. فلما جلس تطلّق النبي - صلى الله عليه وسلم - في وجهه وانبســط له. فلما انطلق الرجل قالت له عائشة : يا رسول الله : حين رأيتَ الرجل قلت له كذا وكذا ، ثم تطلّقت في وجهه وانبسطت إليه. فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " يا عائشة متى عَهدتني فاحشا؟ إن شر الناس عند الله منزلــة يوم القيامة من تركه الناس إتقاء شره"( )

يقول ابن حجر عند شرحه للحديث "هذا الحديث أصل في المداراة" وعلى هذا الرأي الهيثمي والسخاوي وجمهرة كبيرة من علماء الحديث ( ) .

وقال أيضا " اختلف العلماء في الرجل الذي استأذن على النبي - صــلى الله عليه وسلم - فمنهم من جزم بأنه عيينة بن حصن الفزاري، ولم يكــن أســلم حينئذ ، وإن كان قد أظهر الإسلام. فأراد النبي - صلى الله عليه وســلم - أن يبين حاله ليعرفه الناس، ولا يغتر به من لم يعرف حاله ، وكان منه في حياة النبي - صلى الله عليه وسلم - ما دل على ضعف إيمانه. وبعد وفاة النبي - صلى الله عليه وسلم - ارتد مع من ارتد وجيء به أسيراً إلى أبــي بكــر - رضي الله عنه - . قال ابن بطال وكان يقال له الأحمق المطاع ورجا النبي - صلى الله عليه وسلم - بإقباله عليه تألفه ليُسلم قومه لأنه كان رئيسهم" ومنهم من جزم بأنه مخرمة وقصره عليه، ومنهم من حمل الحديث على التعدد( ) .

( ) ابن حجر : فتح الباري ، شرح صحيح البخاري / ، كتاب الأدب (باب: ما يجوز من اغتياب أهل الفساد والريب).

( ) المرجع السابق / ، كتاب الأدب، باب: لم يكن النبي فاحشاً ولا متفحشاً. واتقاء شره: أي قبح كلامه. ابن حجر: فتح الباري / . ومسلم بن الحجاج : صحيح مسلم شرح النووي / . تحقيق وتصحيح وترقيم وتعليــق : محمد فؤاد عبدالباقي ، دار الافتاء/ الرياض هـــ م.

( ) ابن حجر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري / ، والهيثمي (علي بن أبي بكر) مجمع الزوائد ومنبع الفوائــد / . مكتبة القدس - القاهرة ، السخاوي (محمد بن عبدالرحمن) : المقاصد الحسنة عند شرحه للحديث رقم ، ص

( ) ابن حجر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري /

وسواء أكان الحديث في عيينة أم في غيره، فإنه يدل على جواز إلانة القـول لمن كان هذا حاله، تآلفاً له للدخول في الإسلام، أو ليحسن إسلامه، أو ليسـلم قومه، أو لأي أمر يعود بالمصلحة على الأمة الإسلامية.

ومن يقرأن هذا الحديث الذي اعتبره ابن حجر وغيره أصلا في المداراة ، قد يتوهم أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - حاشاه - قد وقع في غيبة الرجل عندما ذمه بذكر ما يكره لو سمعه صراحة من الرسول - صـلى الله عليـه وسلم - أو أنه داهنه عندما هش له وبش، وانبسط له، وألانَ الكلام معه. فإذا ما وقفنا على الحكم استحضرنا مسوغ فعل الرسول - صلى الله عليه وسلم - وهو بيان كيفية التعامل مع مثل هؤلاء. ويضاف إلى ذلك أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - كان طيب الكلام، فلم يكن فاحشاً ولا متفحشاً، ولا سباباً ولا لعّاناً، وكان ينهى عن الغيبة والتملق والمداهنة والنفاق.

"وليس في قول النبي - صلى الله عليه وسلم - في أمته بالأمور التي يسميهم بها، ويضيفها إليهم من المكروه غيبة. وإنما يكون ذلك من بعضهم في بعض. بل الواجب على الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يبين ذلك ويُفصح به، ويعرف الناس أمره فإن ذلك من باب النصيحة والشفقة على الأمـة. فـأراد الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يعلم أمته اتقاء شر مـن هـذا سـبيله، ومُداراته ليسلموا من شره وغائلته وذلك بأن يظهروا لهـم البشاشـة، وأن لا يجبهوهم بها"( ) وقال ابن العربي "والحجة فيه: أن النبي - صـلى الله عليـه وسلم - أظهر له من البشر والطلاقة واللين خلاف ما قاله له عند الاستئذان. ولم يكن ذلك من قسم النفاق وحاشاه، ثم حاشاه، ثم حاشاه. ولكـن أمـره الله تعالى أن يسن لأمته سنة في التعريف بحال الفاسق لمن جهله. وألان له القول مخالفة من غير أن يكون في القول معه كذب ولا مراء"( ).

( ) ابن حجر: فتح الباري شرح صحيح البخاري /
( ) الترمذي: (محمد بن عيسى) صحيح الترمذي، / (باب ما جاء في المداراة).

إذن ففعله - صلى الله عليه وسلم - كان استلطافاً وتطيبياً لخاطر ذلك المنافق الشرير ليتمكن من إيمانه، وينجذب بذلك إلى الإسلام وينجـذب قومـه معـه بالإضافة إلى تعريف الناس بحاله ليتقوه.

ونستفيد من هذا الحديث ، الفوائد التالية:

- جواز غيبة المعلن بالفسق أو الفحش لاتقاء شره وتجنبه.
- جواز غيبة الحاكم الجائر الظالم المعلن للجور في الحكم والدعوة إلـى مداراته ونصيحته إتقاء لشره.
- جواز غيبة الداعي إلى البدعة، وتحذير الناس منه مع مداراته ليرجـع عن بدعته، ويُتقي شره وقبح كلامه.
- يشترط في مداراتهم أن لا تؤدي إلى المداهنة في دين الله.
- وباجمال فكل من اطلع من حال شخص على شيء وخشي أن غيـره يغتر بجميل ظاهره فيقع في محذور ما. فعليه أن يطلعه علـى مـا يحذر من ذلك قاصداً نصيحته( ).
- ان الدعوة إلى الله لتقتضي من الداعية أن يعرف كيف يتعامـل مـع الناس أسوة بالرسول - صلى الله عليه وسلم -.

- ويلحق بهذا الأصل - أعني الحديث السابق - ما رواه عدي بـن حـاتم - رضي الله عنه - عن إكرام الرسول - صلى الله عليه وسلم - له - كما أكرم أخته - قبل إسلامه بعد عودته إلى المدينة المنورة. وكان قد فرّ منهـا إلـى الشام بعد انتصار المسلمين.

قال عدي - رضي الله عنه - "ثم مضى بي - رسول ا لله صـلى الله عليـه وسلم - حتى إذا دخل بي بيته تناول وسادة من أدم محشوة ليفا فقذفها إلـيّ ، فقال أجلس على هذه . قال: قلت بل أنت فاجلس عليها، فقـال: بـل أنـت.

( ) ابن حجر: فتح الباري / بتصرف.

فجلست عليها وجلس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالأرض. قال: فقلت في نفسي والله ما هذا بأمر ملك"( )

وتذكر السيرة النبوية أنه دخل في الإسلام، وكان له الأثر الواضح في الدعوة والجهاد. ويرى الباحث، أن الاحترام الظاهري ، والتعامل الحسن مع من لا يستحقه - كحال عدي قبل إسلامه - إذا كان لمصلحة شرعية تعود بالنفع على الإسلام وأهله من زيادة عدد المسلمين أو دفع الأذى والضرر عنهم وغير ذلك جائز استناداً إلى فعله - صلى الله عليه وسلم - ولهذا عندما سئل ابن عباس - رضي الله عنهما عن تفسير قوله تعالى (وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً) قال " من سلّم عليك من خلق الله فاردد عليه وإن كان مجوسياً"( ) وقال أيضا كلاما قريبا من هذا عندما سأله سعيد بن جبير عن كيفية التعامل مع غير المسلمين، فعن أبي سنان (ضرار بن مرة الكوفي) قال: قلت لسعيد بن جبير : المجوسي يؤليني من نفسه، ويسلم عليّ أفأرد عليه؟ فقال سعيد : سألت ابن عباس عن نحو ذلك فقال: لو قال لي فرعون خيراً لرددت عليه ، وقال أيضاً: لو قال فرعون: بارك الله فيك. لقلت وفيك".( )

ويقول ابن حجر عند بيانه لرسالة الرسول - صلى الله عليه وسلم لهرقل عظيم الروم "لم يُخله من إكرام لمصلحة التألف" ( )

ويرى الباحث من خلال ما مرّ أن العلاقة مع غير المسلمين في الجانب الحياتي قائمة على تألفهم وتحبيبهم بالإسلام بالكلمة الطيبة والفعل الحسن. أما إذا كانت العلاقة معهم قائمة على التنازل عن المباديء، أو مساومات على الحق. فلا تكون مداراة بل هي انحراف عن المنهج القويم موجبة لسخط الله،

( ) ابن هشام (محمد بن عبدالملك). سيرة ابن هشام / ، تحقيق محمد خليل هراس. مكتبة الجمهورية. مصر.
( ) الطبري (محمد بن جرير) : تفسير الطبري / ، دار المعرفة - بيروت. والآية ص النساء . ابن أبي الدنيا ، مداراة الناس/ص .
( ) ابن أبي الدنيا / مداراة الناس / ص .
( ) ابن حجر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري /

ولذلك حذر الله - سبحانه - رسوله - صلى الله عليه وسلم - من كل ذلك. يقول تعالى (قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ) ( )

وبناء على هذا التوجيه الرّباني فقد رفض الرسول - صلى الله عليه وسلم - من أول يوم كل مساومة على حساب الدين. ظهر هذا في محاولة زعماء قريش في الجاهلية التأثير عليه ليتنازل عن بعض دعوته الجديدة أو كلها، فعرضوا عليه المال والسيادة والملك، ومعالجته مما هو فيه من الجنون - كما يظنون - واستمر في عرض دعوته باللين واللطف، وبلا مداهنة غير مهتم مما يلاقي في سبيل الله. لإخراج الناس من الظلمات إلى النور. ( )

- ومن الأحاديث التي استأنس بها بعض العلماء على مشروعية المداراة جواز الكذب لقصد الإصلاح، وعند الاضطرار، مع جزمهم بأن الكذب لا يجوز في شيء مطلقاً. وحملوا الكذب المراد في بعض الأحاديث على التورية والتعريض شريطة أن لا يسقط حقاً من الحقوق الواجبة. ودليلهم على ذلك:
  - كذب نبي الله إبراهيم عليه السلام - ثلاث كذبات ، ليخرج من المأزق الذي وقع فيه.
  - الكذب للإصلاح بين الناس . والكذب في الحرب ، والكذب بين الزوجين.

  الأول: فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: لم يكذب إبراهيم - عليه السلام - إلا ثلاث كذِبات؛ ثنتين منهم في ذات الله، عز وجل: قوله (إني سقيم)، وقوله (بل فعله كبيرهم هذا). وقال: بينا هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبّار من الجبابرة، فقيل له: إن ها هنا رجلا معه إمرأة من أحسن

( ) من سورة الأنعام الآية ( ) . وانظر الآية ( ) من المائدة . والآية ( ) من الشورى.
( ) ابن هشام (عبدالملك بن محمد) : سيرة ابن هشام / وما بعدها.

الناس، فأرسَل إليه، فسأله عنها، فقال: من هذه؟ قال: أختي، فأتى سارة، قال: يا سارة: ليس على وجه الأرض مؤمن غير وغيركِ، وأن هذا سألني عنك، فأخبرته أنك أختي فلا تكذبيني، فأرسَل إليها. فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فأُخذ، قال: ادعي اللهَ لي ولا أضُرّك، فدعت الله فأُطلق... الحديث) قال أبو هريرة (تلك أمكم يا بني ماء السماء) ( )

وقد أجاب ابن حجر على كذب إبراهيم - عليه السلام - بقوله "وأما اطلاقه الكذب على الأمور الثلاثة فلكونه قال قولاً يعتقده السامع كذباً لكنه إذا حقق لم يكن كذباً، لأنه من باب المعاريض المحتملة للأمرين، فليس بكذب محض، فقوله (إني سقيم) يحتمل أن يكون أراد أني سقيم ، أي سأسقم، واسم الفاعل يستعمل بمعنى المستقبل كثيرا. ويحتمل أنه أراد أني سقيم بما قُدر عليَ من الموت، أو سقيم الحجة على الخروج معكم، وقيل غير ذلك.

وقوله (بل فعله كبيرهم هذا) قال تمهيداً للاستدلال على أن الأصنام ليست بآلهة، وقطعا لقومه أنها تضر وتنفع وهذا الاستدلال يتجوز فيه في الشرط المتصل، ولهذا أردف قوله (بل فعله كبيرهم) بقوله (فاسألوهم إن كانوا ينطقون) قال ابن قتيبة معناه إن كانوا ينطقون فقد فعله كبيرهم هذا. أو أنه أسند إليه ذلك لكونه السبب. وقيل غير ذلك وقوله (هذه أختي) يعتذر عنه بأن مراده أنها اخته في الإسلام ، قال ابن عقيل : دلالة العقل تصرف ظاهر إطلاق الكذب على إبراهيم - عليه السلام - وذلك أن العقل قطع بأن الرسول ينبغي أن يكون موثوقاً به ليعلم صدق ما جاء به عن الله، ولا ثقة مع تجويز الكذب عليه، فكيف مع وجود الكذب منه. وإنما أطلق عليه ذلك لكونه بصورة الكذب عند السامع، وعلى تقديره. فلم يصدر ذلك من إبراهيم

( ) ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري / ، كتاب الأنبياء ، باب قول الله تعالى (واتخذ الله إبراهيم خليلا) ونحوه في مسلم. راجع المنذري (زكي الدين عبدالعظيم بن سلامة) : مختصر صحيح مسلم. تحقيق محمد ناصر الدين الألباني/ص ، رقم الحديث ، كتاب ذكر الأنبياء ، وفضلهم ، باب قول إبراهيم عليه السلام ، إني سقيم ..) ط ، المكتب الإسلامي - دار العربية ، دمشق ، م.

- عليه السلام - يعني إطلاق الكذب على ذلك إلا في حال شدة الخوف لعلو مقامه. وإلا فالكذب المحض في مثل تلك المقامات يجوز، وقد يجب لتحمل أخف الضررين دفعاً لأعظمهما. وأما تسميته إياها كذبات ، فلا يريد أنها تذم، فإن الكذب وإن كان قبيحاً مُخلاً لكنه قد يحسن في موضع وهذا منها( )

ونستفيد من هذا الحديث فوائد كثيرة ، أهمها:

- الرخصة في الانقياد للظالم والغاصب لدفع الضرر.
- كفاية الرب لمن أخلص الدعاء بعمله الصالح.
- أباحة المعاريض فعن عمران بن حصين - رضي الله عنه - قال "في المعاريض مندوحة عن الكذب" ( )قال عمر - رضي الله عنه - "أما في المعاريض ما يغني الرجل عن الكذب، فالمعاريض. ما يعرَض به، ولا يصرّح مندوحة ، أي سعة وفسحة. أي فيها ما يستغني به الرجل عن الاضطرار إلى الكذب. ( )

الثاني: استدلوا كذلك بالحديث المتعلق بجواز الكذب لقصد الإصلاح بين الناس فعن ابن شهاب أن حميد بن عبدالرحمن أخبره أن أمه أم كلثوم بنت عقبة أخبرته أنها سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فَينمي خيراً أو يقول خيرا"( )

وفي مسلم "ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس ويقول خيراً ويَنمي خيراً. قال ابن شهاب: ولم أسمع يُرخَصّ في شيء مما يقول الناس كذب إلا في ثلاث: الحرب ، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل إمرأته، وحديث

( ) ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ، شرح صحيح البخاري / - .

( ) ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ، شرح صحيح البخاري / - .

( ) البغوي (الحسين بن محمد) شرح السنّة / حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه شعيب الأرناؤوط، وزهير الشاويش، المكتب الاسلامي ، بيروت م.

( ) ابن حجر : فتح الباري ، / ، كتاب الصلح (باب ليس الكاذب الذي يصلح بين الناس) .

المرأة زوجها، وفي رواية قالت: ولم أسمعه يرخص في شيء مما يقول الناس إلا في ثلاث ( )

(وَيَنْمِي) بتفح أوله وكسر الميم أي يُبلغ ، تقول: نَميت الحديث أنميه، إذا بلغته على وجه الإصلاح وطلب الخير، فإذا بلغته على وجه الإفساد والنميمة، قلت نمَّيته بالتشديد. ( )

لقد اختلف العلماء في الكذب المذكور في هذا الحديث على أقوال: قال الطبري: ذهبت طائفة إلى جوازه بقصد الإصلاح، وقالوا إن الكذب المذكور في بعض الأحاديث ومنها هذا الحديث، إنما هو لضرب المثال، وقالوا: الكذب المذموم إنما هو فيما فيه مضرة، أو ما ليس فيه مصلحة.

وقال آخرون: لا يجوز الكذب في شيء مطلقاً وحملوا الكذب المراد هنا على التورية والتعريض كمن يقول للظالم دعوت لك أمس، وهو يريد قوله اللهم اغفر للمسلمين. أو كمن يعد إمرأته بعطية شيء. ويريد إن قدر الله ذلك.. وما إلى ذلك.

واتفقوا على أن المراد بالكذب في حق المرأة والرجل إنما هو فيما لا يسقط حقاً عليه أو عليها، أو أخذ ما ليس له أو لها. واتفقوا كذلك على جواز الكذب عند الاضطرار ويحلف على ذلك ولا يأثم.

والمراد من الحديث أنه يخبر بما علمه من الخير، ويسكت عما علمه من الشر، ولا يكون ذلك كذباً. لأن الكذب: هو الاخبار بالشيء على خلاف ما هو به وهذا ساكت ولا ينسب لساكت قول ، وليس في الحديث حجة لمن قال، يشترط في الكذب القصد إليه( )

( ) المنذري : مختصر صحيح مسلم ، بتحقيق الألباني / ص ، كتاب البرّ والصلة (باب ما يجوز فيه الكذب) رقم الحديث

( ) ابن حجر العسقلاني : فتح الباري ، شرح صحيح البخاري /

( ) ابن حجر العسقلاني: فتح الباري شرح صحيح البخاري / . وانظر مسلم، صحيح مسم بشرح النووي / - ، دار الكتب العلمية - بيروت . والتعريض: عدم التصريح

- ومنها: جعل المداراة صدقة للمداري فعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مداراة الناس صدقة( )
- ومنها: الحث على مداراة الزوجات ليستقمن لأزواجهن. فعن سمرة مرفوعاً أنه قال: "خلقت المرأة من ضلع، فإن تقمها تكسرها، فدارها تعش بها" ( )
- ومنها الضحك وإظهار الأنس والفرح على خلاف ما عليه القلب وهو ما يعرف بالمكاشرة ، فعن أبي الدرداء - رضي الله عنه - قال : إنا لنكشِر في وجوه أقوام وإن قلوبنا لتلعنهم" ( )
- ومنها: طلاقة الوجه عند اللقاء فعن أبي ذر - رضي الله عنه - قال: قال لي النبي - صلى الله عليه وسلم - " لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق"( )

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إنكم لا تسعون الناس بأموالكم ولكن ليَسَعهم منكم بسط وجوه وحسن خلق"( )

- ويلحق بما سبق كثرة التبسم، فعن عبدالله بن الحارث قال: "ما رأيت أحد أكثر تبسماً من رسول الله - صلى الله عليه وسلم"( )

وهناك أحاديث كثيرة تحث المسلم على الرحمة، والشفقة، والرفق، والإحسان، والود والتحابب، والعفو، والصبر على الأذى، وأحاديث تحذر

( ) الهيثمي (علي بن أبي بكر) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد / (باب مداراة الناس ومن لا يؤمن شره) ، العجلوني (اسماعيل بن محمد): كشف الخفا ومزيل الالتباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس / طبعة حلب بإشراف أحمد القلامسي. مكتبة التراث الاسلامي - حلب . قال العجلوني (الحديث صحيح) .

( ) ابن حجر: فتح الباري / - كتاب النكاح (باب المداراة مع النساء: وقول الرسول (صلى الله عليه وسلم إنما المرأة كالضلع).

( ) المرجع السابق / ، كتاب الأدب (باب المداراة) ولمعرفة معنى (كشر) في اللغة راجع لسان العرب / وأول البحث.

( ) المنذري. مختصر صحيح مسلم / ص ، كتاب البر والصلة (باب في تعاهد الجيران بالبر) رقم الحديث .

( ) ابن حجر العسقلاني: مختصر زوائد مسند البزار على الكتب الستة ومسند أحمد / ، تحقيق وتقديم صبري عبدالخالق أبو ذر. مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت هـ.

( ) الترمذي ، سنن الترمذي / ، كتاب المناقب ، باب في نساء النبي ، رقم الحديث

من القسوة والعنف، وسوء الظن، واللعن، والفحش في القول.. الخ سيذكر الباحث بعضاً منها عند بيانه لبعض أنواع المداراة.

ويرى الباحث أنه من الممكن الاستئناس بها للدلالة على مشروعية المداراة في الإسلام. لما فيها من حسن المعاشرة مع الناس، والاحسان إليهم، وإلانة الكلام وترك الأغلاظ لهم في القول، والانبساط معهم.. إلخ من أجل تآلفهم، وكف أذاهم، وصيانة العرض منهم.

الآثار الواردة في المداراة

ومن الآثار الورادة في المداراة والتي يمكن الاستئناس بها على مشروعيتها:

- لقد بين الرسول - صلى الله عليه وسلم أهمية التحبب والتودد إلى الناس، وملاينتهم، واصطناع الخير لهم، فقد أخرج ابن أبي شيبة، وابن أبي الدنيا عن سعيد بن المسيب ، قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - "رأس العقل بعد الإيمان بالله ، مداراة الناس" ( )
- وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - مرفوعاً "رأس العقل بعد الإيمان بالله، التودد إلى الناس" وفي رواية علي - رضي الله عنه - "واصطناع الخير إلى كل برّ وفاجر"( )
- وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - "رأس العقل التحبب إلى الناس في غير ترك الحق" ( )

( ) السيوطي (عبدالرحمن): الدر المنثور في التفسير بالمأثور / ط ، محمد أمين وشركاه . بيروت.

( ) العجلوني (اسماعيل بن محمد) : كشف الخفا / ، رقم الحديث ، ط دار إحياء التراث العربي. قال: وفي الباب أحاديث عن أنس وابن عباس يقوي بعضها بعضا . والبيهقي : (أحمد بن الحسين) ، السنن الكبرى / ، دار المعرفة - بيروت - لبنان.

( ) العجلوني (اسماعيل بن محمد) : كشف الخفا / ، قال وروى الخطابي عن الحسن البصري، أنه قال : المداراة نصف العقل. فقال الخطابي ، وأنا أقول هي العقل كله.

- وقال عمر - رضي الله عنه - "ثلاث خصال من لم تكن فيه لم ينفعه الإيمان، حلمٌ يرد به جهل الجاهل، وورع يحجزه عن المحارم، وخلق يداري به الناس"( )
- واعتبرها أيوب السختياني من علامات النبل في الرجل وخصلة حميدة من خصائله قال" لا يَنْبل الرجلَ حتى تكون فيه خصلتان، العفة عما في أيدي الناس، والتجاوز عما يكون منهم"( ) وهناك رواية أخرى "لا يستوي العبد - أو لا يسود العبد - حتى يكون فيه خلصتان ، اليأس مما في أيدي الناس، والتغافل عما يكون منهم"( )
- وقد عدّها الأحنف من الحلم حيث قال: "ما نازعني أحد إلا أخذت أمري بأمور، إن كان فوقي، عرفت له. وإن كان دوني رفعت قدري عنه، وان كان مثلي تفضلت عليه". وقال أيضاً: "لست بحليم ولكني أتحالم".( )
- وفي نفس المعنى عن ميمون بن مهران، قال: سمعت ابن عباس يقول: "ما بلغني عن أخ مكروه قط إلا أنزلته إحدى ثلاث منازل: إن كان فوقي عرفت له قدره، وإنه كان نظيري تفضلت عليه، وإن كان دوني لم أحفل به. هذه سيرتي في نفسي. فمن رغب عنها ، فأرض الله واسعة"( )
- قال زيد بن حارثة : "لا تستثيروا السباع في مرابضها فتندموا، وداروا الناس في جميع الأحوال تسلموا"( )
- ومن أقوال الناس في المداراة: من عرف الناس داراهم، ومن جهلهم ماراهم" وجاء أيضاً " رأس المداراة ترك المماراة"( )

( ) منصور بن الحسين الآبي : نثر الدر / ، تحقيق محمد علي قوته مراجعة محمد علي البجاوي.. الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة هـ.

( ) ابن رجب (عبدالرحمن بن علي) جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم / ، حققه وضبطه وعلق عليه، وخرج أحاديثه وهبة الزحيلي ، دار الخير - بيروت ، هـ.

( ) الأصبهاني (أحمد بن عبدالله) : حلية الأولياء وطبقات الأصفياء / ط ، دار الريان للتراث - القاهرة ، دار الكتاب العربي - بيروت، م

( ) الذهبي(محمد بن عثمان): سير أعلام النبلاء / ، تحقيق شعيب الأرناؤوط ط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت، هـ.

( ) الجوزي (عبدالرحمن بن علي) : صفوة الصفوة / ، تحقيق محمود فاخوري ومحمد رواس قلعة جي ، ط ، دار الوعي ، حلب، هـ.

( ) الأصفهاني (الراغب: محاضرات الأدباء ، ومحاورة الشعراء والبلغاء / ، دار مكتبة الحياة، بيروت.

- قال مكحول الشامي: "من مات مداريا مات شهيداً"( )

- ومن الشعر ، قال أبو سليمان الخطابي.

ما دمت حيا فدار الناس كلهم   فإنما أنت في دار المداراة ( )

وهناك أقوال كثيرة للعلماء تركتها خشية الإطالة، وحسبنا ما ذكرناه للدلالة على مشروعية المداراة.

( ) أسامة بن منقذ: لباب الآداب /   ، دار الكتب العلمية، بيروت ،

( ) الأصبهاني : أبو نعيم (أحمد بن عبدالله) ، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء /   ، دار الكتب العلمية، بيروت.

( ) الثعالبي (عبدالملك بن محمد) : خاص الخاص . قدم له حسين الأمين / ص   .

" أنواع المداراة"

بعد بيان معنى المداراة في اللغة والأصطلاح والفرق بينها وبين المداهنة والنفاق والخداع والتقية، والأدلة على مشروعيتها من الكتاب، والسنة والمأثور عن السلف. ننتقل إلى بيان أهم أنواعها:

<u>النوع الأول:</u> المداراة بالكلمة اللّينة والقول الحسن. يقول تعالى "وقولوا للناس حسنا" ( ) ينبغي على الإنسان عند تعامله مع الناس، ودعوتهم إلى الخير أن يخاطبهم بالطيب من الكلام مبتعداً عن الألفاظ والكلمات النابية، من اللعن والسب والشتم، والإغلاظ في القول، متأسياً برسول الله - صلى الله عليه وسلم - في معاملاته مع الناس، وسأكتفي بذكر بعض الأحاديث الدالة على أهمية الكلمة اللينة، والكلام الحسن، وأنهما من أفضل الأعمال عند الله -سبحانه-، وبهما ترتفع درجة العبد عند ربه - عز وجل - وينال بهما إذا أضيفا إلى بقية أعماله الصالحة رضوان الله - سبحانه - والفوز بالجنة.

- فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم أنه قال : "الكلمة اللينة صدقة، وكل خطوة يمشيها إلى الصلاة ، أو قال إلى المسجد صدقة" ( )
- وعن عمرو بن العاص - رضي الله عنه - قال: قال رجل: يا رسول ا لله أي العمل أفضل، قال: إيمان بالله، وتصديق وجهاد في سبيل الله، وحج مبرور" قال الرجل: اكثرت يا رسول الله ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم: "فلين الكلام وبذل الطعام ، وسماح ، وحسن خلق". ( )

( ) من سورة البقرة، الآية ( ) . ويمكن مراجعة ما جاء في تفسيرها في بداية البحث عند عرض الباحث للدلالة على مشروعية المداراة من القرآن الكريم.

( ) ابن حنبل (أحمد) مسند الإمام أحمد بن حنبل وبهامشه منتخب كنز العمال في سنن الأقوال والأعمال / ، المكتب الاسلامي للطباعة والنشر، دار صادر، بيروت.

( ) المرجع السابق /

- وعن معاذ بن جبل - رضي الله عنه - من حديث طويل رواه عن النبي - صلى الله عليه وسلم - لِما سأله ربه - عز وجل - عن الدرجات. قال: (أي الله سبحانه) وما الدرجات؟ قلت: إطعام الطعام، ولين الكلام، والصلاة والناس نيام"( )
- وعن أبي شريح هاني مرفوعاً " من موجبات الجنة، إطعام الطعام، وإفشاء السلام، وحسن الكلام" ( )
- وعن أبي مالك الأشعري مرفوعاً "في الجنة غُرف لمن أطاب الكلام".( )

وللكلمة الطيبة في النفوس مفعول أكثر من إعطائها المال فعن عروة بن الزبير بن العوام قال: مكتوب في الحكمة: لتكن كلمتك طيبة، وليكن وجهك بسطا تكن أحبّ إلى الناس ممن يعطيهم العطاء. ( )

وفي المقابل فإن للكلمة السيئة أثراً في نفوس السامعين، فقد تؤدي إلى الوقوع في أعراض الناس وغيبتهم، ونسبتهم إلى ما هو غير كائن، لذلك جاء توجيه الرسول - صلى الله عليه وسلم - في إعطاء الشاعر ومن يخاف لسانه فعن أبي هريرة مرفوعاً: "ذبوا بأموالكم عن أعراضكم ، قالوا: يا رسول الله كيف؟ قال : تعطون الشاعر ومن يخاف لسانه". ( )

والأحاديث النبوية ، وأقوال أهل العلم كثيرة في هذا الموضوع نبين أهمية الكلمة الطيبة وأثرها على الأفراد والجماعات.

النوع الثاني: المداراة بطلاقة الوجه والبشر (التبسم والضحك والانبساط) ومن الأحاديث الدالة على هذا النوع حديث أبي الدرداء ، كما جاء في صحيح البخاري "إنا لنَكْشِر في وجوه أقوام، وإن قلوبنا لتلعنهم" . ( )

( ) أحمد بن حنبل : مسند الإمام أحمد / . محمد الترمذي: سنن الترمذي، كتاب التفسير باب حديث تحقيق أحمد شاكر، دار الكتب العلمية، بيروت.
( ) ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ، شرح صحيح البخاري /
( ) ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ، شرح صحيح البخاري /
( ) ابن أبي الدنيا : مداراة الناس ص/
( ) السخاوي : المقاصد الحسنة / ص
( ) ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري / ، كتاب الأدب : باب المداراة .

ونكشر في وجوه القوم: أي نَبسم في وجوههم. وكاشـــره: إذا ضـــحك فـــي وجهه وباسطه،( ) وكان عليه - الصلاة والسلام - كما ثبت في بعض الأحاديث ، إذا لقي رجلاً هاشاً باشّاً صافحه وأقبل عليه. روى عكرمة قال: "كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا لقي الرجل فرأى في وجهه البِشر صافحه".( ) ولقد عدّ الرسول - صلى الله عليه وسلم - التبسم من الصدقة ، فعن أبي ذر - رضـــي الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم" تبسمك في وجه أخيك صدقة"( )

ويلحق بطلاقة الوجه والبشر، الترحيب بالفاجر وإلانة الكـــلام لـــه. فعـــن عبدالرحمن بن جابر بن عتيك عن أبيه أن رسول الله - صلى الله عليـــه وســـلم - قال: سيأتيكم رُكيب مبغضون. فإذا جاءوكم فرحبوا بهم، وخلّوا بيـــنهم وبـــين مـــا يبتغون، فإن عَدلوا فلأنفسهم، وإن ظلموا فعليها، وأرضـــوهم فـــإن تمـــام زكـــاتكم رضاهم وليدعوا لكم"( )

ومـــر معنا ترحيب الرسول - صلى الله عليه وسلم - بالرجـــــل الـــــذي وصفه بقوله (بئس أخو العشيرة أو ابن العشيرة) والذي اعتبره ابن حجر أصلاً في المداراة.( )

هذه الأدلة وأمثالها تبين لنا أهمية طلاقة الوجه والبسمة والضحك في إقامـــة بعض الروابط والعلاقات الإجتماعية بين الناس.

ويرى الباحث أنه لا يمكن فصل النوعين السابقين عن بقية أنواع المداراة إلا الآتية الذكر، لتتحقق الثمرة المنشودة من المداراة، وهي تألف الناس وجـــذبهم إلـــى الدين. فلا ينفع عطاء أو دعاء. ولا تنفع هبة أو نصيحة، أو صحبة حســـنة إذا لـــم يضف إليها كلمة طيبة وقول حسن، وطلاقة وجه وانبساط وإقبال .. الـــخ . وأمـــا

( ) ابن منظور : لسان العرب / .

( ) ابن أبي الدنيا: مداراة الناس /

( ) الترمذي: صحيح الترمذي / ، أبواب البر والصلة (باب صنائع المعروف) وقال عنه (حديث حسن).

( ) أبو داود (سليمان بن الأشعث) وسنن أبي داود / ، رقم الحديث طبع الدار المصرية ، والدار اللبنانية - القاهرة م. والهيثمي (علي بن أبي بكر) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد / . طبع دار الكتب العلمية - بيروت - لبنـــان - وقال الهيثمي - رجاله ثقات - ورواه البزار وفي بعض الرواة خلاف لا يضر.

( ) ابن حجر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري / ، سبق ذكره وشرحه في بداية البحث.

السبب في جعلهما نوعين هو النظر إلى علاقة الإنسان مع الآخرين، فالعلاقــة قــد تكون عامة وقد تكون خاصة، فإذا كانت عامة فإنه يكتفى بالنوع الأول أو بــالنوع الثاني أو بهما معاً. وأما إذا كانت خاصة فمن الممكن أن يضيف إليهما باقي الأنواع أو بعضها. أو ما يراه مناسبا لتتحقق أحسن النتائج.

<u>النوع الثالث:</u> المداراة بالعطايا والهبات

الإحسان إلى الداخلين في الإسلام حديثا ، إنما شرع لتحبيبهم فــي الإســلام وجذبهم إليه، واستبعادهم عن الشرك، ولذلك كان الرسول - صلى الله عليه وسلم - يحسن إليهم بالقول والفعل، بالكلمة الطيبة، والملاطفة والانبساط في وجــوههم، أو بإعطائهم مالاً أو عقاراً تأليفاً لقلوبهم، ليحسن إسلامهم والحوادث التي تدل على ذلك من سيرة الرسول - صلى الله عليه وسلم - كثيرة أذكر طرفاً منها:

- بعد غزوتي حنين والطائف حيث حسن إسلام أكثر المؤلفة قلوبهم وانخرطوا في الجهاد يدافعون عن الإسلام ويتمنون الشهادة في سبيل الله، بل وانقلــب بغضهم الشديد للرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى حــب ســيطر علــى قلوبهم وعقولهم فعن صفوان قال: " والله لقد أعطاني رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما أعطاني، وإنه لأبغض الناس إليّ، ما برح يعطيني حتى إنه لأحب الناس إلي"( )
- وتظهر حكمة مداراة الرسول - صلى الله عليه وسلم - للأنصــار عنــدما غضبوا من طريقة توزيع الغنائم بعد غزوة الطائف. قال لهم : "أما ترضون أن يذهب الناس بالدنيا، وتذهبون أنتم برسول الله تحوزونه إلى بيوتكم؟ قالوا بلى يا رسول الله رضينا. فقال: لو سلك الناس وادياً وسلكت الأنصار شعباً لأخذت شعب الأنصار" . وفي رواية أخرى "ألا ترضون أن يذهب النــاس

( ) النيسابوري (مسلم) صحيح بشرح النووي / وللإستزادة يراجع فتح الباري / كتاب مناقب الأنصار / ، كتاب المغازي (غزوة الطائف وحنين) وصحيح مسلم شرح النووي / / .

بالشاء والإبل وتذهبون برسول الله إلى رحالكم. الأنصار شعار والناس دثار ولولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار". ( )

الأسلوب الرابع: المداراة بالنصيحة والدعاء

هذا الأسلوب وإن كان يشمل كل الناس إلاّ أن الباحث يرى أن تخصيصه بالحكام والسلاطين والفجار ، والفسقة، لما له من أثر طيب في نفوسهم، وتكون نتيجته طيبة على الجميع. والأمر الثاني ليس من مقصد هذا البحث بيان حكم الشرع في الحاكم الذي لا يطبق شرع الله وأقوال العلماء فيه( ) وإنما المقصود منه، كيف نتعامل مع الحكام سواء أكانوا من الكفار أم من المسلمين، وكيف نتعامل مع الفجار، والفسقة وأضرابهم من الناس، أما لجلبهم للدين، أو ردهم عن الظلم والتجبر وأكل أموال الناس بالباطل، أو إتقاء شرهم وفحشهم، أو إبعادهم عن غيّهم وفسادهم.

لا شك أن هذا الأسلوب لا يكون إلا بالطرق الطيبة الحكيمة مثل الكلام اللطيف، والإبتسامة الرقيقة، والتنبيه على الأخطاء برفق ولطف، وأسلوب حسن، والدعاء لهم بالهداية والتوفيق، وأن يعينهم الله على ترك الباطل، وإقامة الحق ، والتعاون معهم على الخير. وإذا ما تم ذلك فقد يضمحل الشر في نفوسهم، أو يزول، ويكثر الخير، وأيضاً عدم التشهير بعيوبهم، والتشنيع عليهم على رؤوس الأشهاد لما فيه من الفساد والفتنة والإقتتال، وسفك الدماء. ولا يخفى ما فعله الخارجون على الخليفة عثمان - رضي الله عنه - حينما أنكروا عليه بعض أعماله علناً، فأدى ذلك إلى الإقتتال، والفتنة بين المسلمين، وتفريق وحدتهم وجماعتهم.

( ) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري / ، مسلم: صحيح مسلم شرح النووي / ، التبريزي (محمد بن عبدالله الخطيب): مشكاة المصابيح / . تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، ط ، المكتب الإسلامي بيروت م. قال: والشعار الثوب الذي على الجسد. والدثار ثوب فوقه. يعني أن الأنصار هم الخاصة والبطانة والاصفياء، والصق الناس به من سائرهم.

( ) يراجع في تفصيل ذلك شرح الطحاوية في العقيدة السلفية العلي بن أبي العز الحنفي / ص ، تحقيق أحمد شاكر - طبع ونشر وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - الرياض هـ.

ويرى الباحث أن هذا الأسلوب في التعامل معهم، يفهم من خطاب الله سبحانه لرسوله - صلى الله عليه وسلم - في الآية الكريمة (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ... الآية) ( )

ويفهم أيضاً من قوله تعالى لموسى وهارون - عليهما السلام - عندما أمرهما - سبحانه - بالذهاب إلى فرعون ، ودعوته للحق - قال سبحانه (فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى) ( )

ويفهم أيضاً من أحاديث الرسول - صلى الله عليه وسلم - في كيفية معاملة الأمراء لمصلحة حقن دماء المسلمين وسفكها بغير حق فعن أم سلمة - رضي الله عنها. أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: ستكون أمراء فتعرفون وتنكرون، فمن عرف بريء ومن أنكر سَلم، ولكن من رضي وتابع. قالوا: أفلا نقاتلهم. قال: لا ما صلوا". وفي رواية: "قلنا : يا رسول الله أفلا ننابذهم عند ذلك، قال: لا ما أقاموا فيكم الصلاة، لا ما أقاموا فيكم الصلاة، إلاّ من ولي عليه وال فرآه يأتي شيئاً من معصية الله، فليكره ما يأتي من معصية الله، ولا ينزعن يدا من طاعة".( )

قال النووي: "أمرنا الرسول - صلى الله عليه وسلم - بالصبر عليهم، وأن ظلموا وأكلوا أموال الناس بالباطل، واللين معهم مع كراهة أفعالهم بقلوبنا للبراءة من الإثم. إذا لم نستطع أن نغير المنكر باليد واللسان".( )

ومر معنا عند بيان أصل المداراة طريقة الرسول - صلى الله عليه وسلم - في تعامله مع الأقرع بن حابس ومع عدي بن حاتم. فالواجب علينا أن نقتدي بأخلاق الأنبياء والرسل - عليهم السلام - في كيفية معاملة هذه الأصناف من

( ) من سورة آل عمران ، الآية : مر ذكرها وتفسيرها عند بيان الأدلة على مشروعية المداراة .
( ) من سورة طه الآية : مر ذكرها وتفسيرها عند بيان الأدلة على مشروعية المداراة .
( ) ابن حجر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري /ص كتاب الفتن. والنيسابوري (مسلم) صحيح مسلم بشرح النووي / كتاب الافادة.
( ) النيسابوري (مسلم) صحيح مسلم شرح النووي /

الناس، مع كراهتنا لتصرفاتهم بقلوبنا، وبذلك تحقن الدماء، وتقل الفتن، ويمنع الفساد، ويضمحل الشر، ويكثر الخير، ولا يخفى على العاقل الآثار الطيبة التي تترتب على زوال الفتن والشرور، من حيث الاستقرار والأمن.

النوع الخامس: المداراة بالصحبة الجميلة والمعاشرة الحسنة

الأسرة قائمة على المودة والرحمة ، والإحسان ، والمعروف. حتى في أشد الحالات وأصعبها، كالطلاق مثلاً. يقول تعالى (وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ)( )

والعلاقات الأسرية، وبخاصة بين الزوجين ينبغي أن يسودها اللين، والمجاملة، والعطف، والإغضاء عن الهفوات، والصبر على الأذى، للمحافظة على تماسك الأسرة، وصفاء جوها. يقول تعالى (وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً) ( )

والعشرة بين الزوجين ، كما هو معلوم تكون بالقول والفعل، والصحبة الجميلة وبذل الإحسان، وحسن المعاملة، والرفق، وكف الأذى، وعدم إظهار الكراهة.. وغير ذلك. ويفعل ذلك كله بإقبال وبشر وطلاقة وجه.

ولعل الحكمة من مجاهدة النفس والتخلق بالأخلاق الجميلة، هو زوال الكراهة بين الزوجين لتخلفها المحبة بينها. ( )

والأدلة من السنة النبوية الكريمة، المؤكدة على حسن معاشرة الرجل لزوجته والوصاة بها كثيرة. اقتطف بعضا منها:

- ما رواه أبو هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم قال: "المرأة كالضّلع. إن أقمتها كسرتها وان استمعت بها استمعت بها

( ) من سورة البقرة، الآية ( ).

( ) من سورة النساء الآية ( ).

( ) عبدالرحمن السعدي: تيسير الكريم الرحمن/ ص ( ).

وفيها عِوج"( ) وفي لفظ آخر عنه : "إن المرأة خلقت من ضلع، لن تستقيم لك على طريقة، وإن استمتعت بها استمتعت بها وفيها عِوج" ( )

- وأخرج ابن حبّان والحاكم والطبراني في الأوسط من حديث سَـمُرة رفعـه "خلقت المرأة من ضلع، فإن تقمها تكسرها، فدارِها تَعِشْ بها" ( )

ففي هذه الأحاديث، الندب إلى المداراة لاستمالة النفوس وتـألف القلـوب، وفيها: سياسة النساء بأخذ العفو منهن، والصبر على عوجهن. وأن من رام تقويمهن فاته الإنتفاع بهن. مع أنه لا غنى للإنسان عن إمرأة يسكن إليهـا، ويستعين بها على معاشه، فالإستمتاع بها لا يتم إلا بالصبر عليها. ( )

- وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم قال: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر. فلا يؤذ جاره، واستوصوا بالنساء خيـرا. فإنّهن خلقن من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمـه كسرته، وان تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء خيراً". ( )

وقوله - صلى الله عليه وسلم - "استوصوا بالنساء خيرا" كأن فيه رمزاً إلى التقويم برفق بحيث لا يبالغ فيه فيُكسر، ولا يتركه فيسـتمر علـى عوجـه والمراد أن يتركها على أعوجاجها في الأمور المباحة، وأن لا يتركها علـى الإعوجاج إذا تعدت ما طبعت عليه من النقص، إلـى تعـاطي المعصـية بمباشرتها أو ترك الواجب. ( )

- وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: كنا نتقي الكلام والإنبساط إلـى نسائنا على عهد النبي - صلى الله عليه وسلم - هيبة أن ينزل فينا شـيء.

( ) ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري / ، كتاب النكاح (باب المداراة مع النساء وقول النبي - صلى الله عليه وسلم - إنما المرأة كالضلع).

( ) ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري / ، كتاب النكاح (باب المداراة مع النساء وقول النبي - صلى الله عليه وسلم - إنما المرأة كالضلع).

( ) ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري / ، كتاب النكاح (باب المداراة مع النساء وقول النبي - صلى الله عليه وسلم - إنما المرأة كالضلع).

( ) المرجع السابق / .

( ) ابن حجر العسقلاني : فتح الباري بشرح صحيح البخاري / ، كتاب النكاح (باب الوصاة بالنساء).

( )ابن حجر العسقلاني : فتح الباري بشرح صحيح البخاري / ، كتاب النكاح (باب الوصاة بالنساء).

فلما توفي النبي - صلى الله عليه وسلم - تكلّمنا وانبسطنا"( ) وقوله "كنا نتقي .." يشير بأن الذي كانوا يتركونه كان من المباح. ( )

- وهناك حديث طويل روته أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - أذكر مقدمته لمن أراد الرجوع إليه، ثم أبين ما يستفاد منه. قالت - رضي الله عنها - "جلسن إحدى عشرة امرأة فتعاهدن وتعاقدن أن لا يكتمن من أخبار أزواجهن شيئاً.. الحديث "( ) وتكلمت كل امرأة عن زوجها من حيث وصفه، وأخلاقه، ومعاملته، وكل ما يتعلق بشخصيته.. الخ.

ومن الأمور المستفادة من هذا الحديث والتي تدل على ما نحن بصدده وهو مداراة النساء، ما يلي:

- حسن عشرة المرء أهله بالتأنيس والمحادثة بالأمور المباحة، ما لم يفض ذلك إلى ما يمنع.
- المزاح أحياناً وبسط النفس به.
- مداعبة الرجل أهله.
- إعلامه بمحبته لها من غير مبالغة لأن ذلك قد يؤدي إلى تجنيها عليه، وإعراضها عنه. فتفسد العلاقة الزوجية.
- ذكر طرف من الأخبار ومستطابات النوادر تبسيطا للنفوس.
- شكره وثناؤه لجميل زوجته.
- تخصيص بعض الزوجات بالتحف والهدايا إذا استوفى للأخرى حقها .
- جواز المبالغة في الأوصاف. ومحله إذا لم يصير ذلك دينا لأنه يفضي إلى خرم المروءة. ( )

( )ابن حجر العسقلاني : فتح الباري بشرح صحيح البخاري / ، كتاب النكاح (باب الوصاة بالنساء).
( )ابن حجر العسقلاني : فتح الباري بشرح صحيح البخاري / ، كتاب النكاح (باب الوصاة بالنساء).
( ) المرجع السابق ، /
( ) ابن حجر العسقلاني : فتح الباري / ، كتاب النكاح (باب حسن المعاشرة مع الأهل) بتصرف. والنيسابوري (مسلم) : صحيح مسلم بشرح النووي / ، دار الكتب العلمية- بيروت.

- ومن هديه صلى الله عليه وسلم في المداراة أنه كان يرسل الجواري إلى عائشة - رضي الله عنها - يلاعبنها بالبنات (اللّعب) فعن عائشة - رضي الله عنها - أنها كانت تلعب بالبنات عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قالت: وكانت تأتيني صواحبي فكن ينقمعن من رسول الله - صلى الله عليه وسلم. قالت: فكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يُسَرّبهن إليّ". ( )

- ومن هديه صلىالله عليه وسلم أيضا أنه كان يصلح بينهن حال خصومتهن من غيرْة ونحوها. فعن أنس - رضي الله عنه - قال: "كان النبي - صلى الله عليه وسلم عند بعض نسائه فأرسلت إحدى أمهات المؤمنين بَصحفة فيها طعام. فضربت التي النبي - صلى الله عليه وسلم - في بيتها يدَ الخادم فسقطت الصَحْفة فانفلتت، فجمع النبي - صلى الله عليه وسلم - فِلَقَ الصحفة، ثم جعل يجمع فيها الطعام الذي كان في الصحفة ويقول: غارت أمُكم. ثم حبس الخادم حتى أتى بصحفة من عند التي هو في بيتها، فدفع الصحفة الصحيحة إلى التي كسرت صحفتها، وأمسك المكسورة في بيت التي كسرت فيه". ( )

- ومنها إباحته - صلى الله عليه وسلم - الكذب بين الزوجين ، لمصلحة التألف.

فعن ابن شهاب أن حميد بن عبدالرحمن أخبره أن أمه أم كلثوم بنت عقبة أخبرته أنها سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول "ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس ويقول خيراً ويَنمي خيراً. قال ابن شهاب : ولم أسمع يُرخص في شيء مما يقول الناس كذب إلا في ثلاث: الحرب ، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل إمرأته، وحديث المرأة زوجها"( )

( ) المنذري : مختصر صحيح مسلم / كتاب فضائل أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - (فضائل عائشة أم المؤمنين) وينقمعن : أي يَتَغَيّبْنَ في البيت حياء وهيبة من رسول الله - صلى الله عليه وسلم.

( ) ابن حجر العسقلاني: فتح الباري / ، كتاب النكاح ، (باب الغيرة).

( ) مسلم: صحيح مسلم بشرح النووي / ، كتاب البر والصلة (باب تحريم الكذب وبيان ما يباح منه).

مر معنا أقوال العلماء في بيان الكذب المذموم والكذب المحمود عند ذكر الأدلة على مشروعية المداراة فلا ضرورة لإعادته كله، وإنما نـذكر أقـوال بعـض العلماء في بيان صورة الكذب المباح بين الزوجين لتستمر الصحبة بينهما.

قال أبو سليمان الخطابي ، "وأما كذب الرجل زوجته . فهو أن يعـدها وَيُمنيّهـا ويظهر لها من المحبة أكثر مما في نفسه، يستديم بذلك صحبتها، ويستصلح بها خُلقها".

وروى أن رجلاً قال في عهد عمر - رضي الله عنه - لإمرأته: نشدتك بالله هل تحبيني؟ فقالت: أما إذا نشدتني بالله، فلا، فخرج حتى أتى عمر. فأرسل إليهـا، فقال: أنت التي تقولين لزوجك: لا أحبك؟ فقالت ، يا أمير المؤمنين نشدني بالله، أفأكذب: قال : نعم فاكذبيه، ليس كل البيوت تبنى على الحـب، ولكـن النـاس يتعاشرون بالإسلام والأحساب". ( )

وقال النووي: "وأما كذبه لزوجته وكذبها له، فالمراد به في إظهار الود والوعـد بما لا يلزم ونحو ذلك. فأما المخادعة في منع ما عليه أو عليها، أو أخذ ما ليس له، أو لها فهو حرام بإجماع المسلمين" ثم قال : وقال بعضهم : المراد بالإباحة هنا هو التورية واستعمال المعاريض لا صريح الكذب، مثل أن يعد زوجتـه أن يحسن إليها ويكسوها كذا، وينوي إن قدر الله ذلك"( )

ويرى الباحث من خلال ما مر من الآيات والأحاديث وأقوال أهـل العلـم، أن الزوجين إذا أرادا استمرار الحياة الزوجية فعليهما انتقاء الكلام الطيب، والقيـام بالأفعال الحسنة وان اضطرا إلى الكذب فعليهما استعمال التورية والمعـاريض شريطة أن لا يتعديا حدود الله. فإن فعلا ذلك سكن إليهما وسكنت إليه، واستعان بها على معاشه.

وحتى تكتمل السعادة الزوجية، يجب عليهما أن يقوما بمداراة أولادهما بعـد العدل بينهم فيما يجب أن يعدل فيه. وأخص بالذكر ما يتعلق بالأُعطيات، لأن عـدم

( ) البغوي - شرح السنة / -
( ) مسلم - صحيح مسلم بشرح النووي /

العدل، وهو مراعاة. بعض الأولاد على حساب البعض الآخر من شأنه أن يـزرع الضغينة بينهم، فيؤدي إلى القطيعة والعداء وربما استخدم ذريعة للكيد بالوالـد، أو بمن خصه الوالد بمزيد من الرعاية والعناية. ولذلك رفض النبي - صلى الله عليـه وسلم - أن يَشهد على تصدق أحد الصحابة - رضي الله عنه - على ابنه بصـدقة، ومنعها عن الآخرين. فعن النعمان بن بشير - رضي الله عنه - قال: إن أباه أتى به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال: إني نَحلْتُ ابني هذا غلاماً كان لي فقـال رسول الله - صلى الله عليه وسلم. أَكلَّ ولدكَ نحلته مثل هـذا؟ فقـال : لا ، فقـال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأرجعه"( )

أما مداراتهم فشأنها شأن أي نوع من أنواع المداراة السابقة ولكن بمزيد من الرحمة، والشفقة، والعطف واللين والانبساط، والتجاوز عن أخطـائهم وهفـواتهم، والصبر على أذاهم.. مع الدعاء لهم وشكرهم على جميل صنيعهم.

ولقد علمنا الرسول - صلى الله عليه وسلم - في أحاديـث كثيـرة كيفيـة التعامل مع الأبناء والصغار ، أذكر منها على سبيل المثال لا الحصـر مـا روتـه عائشة - رضي الله عنها - قالت : قدم ناس من الأعراب على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالوا: أتقبّلون صبيانكم؟ فقال: نعم، قالوا : لكنا والله مـا نُقبـل ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - " أو أملك إن كان الله نزع مـن قلـوبكم الرحمة"( ) وأرشدنا الرسول - صلى الله عليه وسلم - كذلك إلـى الإحسـان إلـى البنات والصبر عليهم فعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : قال رسـول الله - صلى الله عليه وسلم - "ما من رجل تُدرِكُ له ابنتان فيحسن إليهما، ما صَـحِبتاه، أو صَحِبهما إلا أدخلتاه الجنة".( ) وعن عقبة بن عامر قال سمعت رسول الله -صلى

( ) النّسائي: (أحمد بن شعيب) سنن النّسائي بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشية الإمام السندي ، تحقيق عبدالفتاح أبو غدة / ، كتاب النحّل، ط ، مفهرسة - دار البشائر الإسلامية للطباعة - بيروت .

( ) ابن حجر - فتح الباري / ، كتاب الأدب.

( ) الألباني (محمد ناصر الدين) ، صحيح سنن ابن ماجة / - الحديث رقم

الله عليه وسلم - يقول "من كان له ثلاث بنات، فصبر عليهن وأطعمهن وسقاهن وكساهن من جِدَتِه. كن له حجاباً من النار يوم القيامة" ( )

وفي الباب أحاديث كثيرة تبين كيفية مداراته - صلى الله عليه وسلم - للصغار من حيث التحبب إليهم وملاينتهم وملاعبتهم ومباسطتهم، والتجاوز عن هفواتهم وأخطائهم، والدعاء لهم. ومعلوم كيف كان - صلى الله عليه وسلم - يعامل الأطفال الصغار، وينهي عن زجرهم إذا ما ارتكبوا خطأ ما. وبلغ من مداراته - صلى الله عليه وسلم - لهم أنه حمل جارية صغيرة على عنقه في الصلاة. فعن أبي قتادة الأنصاري - رضي الله عنه - قال: رأيت النبي - صلى الله عليه وسلم - يؤم الناس وأمُامة بنت أبي العاص وهي ابنة زينت بنت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على عاتقه، فإذا ركع وضعها، وإذا رفع من السجود أعادها".( )

وبعد عرض هذه الأنواع يرى الباحث أن الجامع بينها وبين أمثالها من أنواع المداراة هو البر والمعروف والإحسان والعفو وما يتفرع عنها من الرحمة، والتعطف، وطلاقة الوجه، والصبر، والصفح والمسامحة.. الخ. ومن أراد المزيد فليراجع كتب السنة النبوية الشريفة وشروحها تحت كتابي الأدب، والبر والصلة وأبوابهما. وقد يجد بعضها تحت كتب أخرى. ولا يظهر ذلك إلا بالبحث والإستقصاء.

( )الألباني (محمد ناصر الدين) ، صحيح سنن ابن ماجة / - الحديث رقم

( ) ابن حجر: فتح الباري شرح صحيح البخاري / ، كتاب الصلاة (باب إذا حمل جارية صغيرة على عنقه في الصلاة.
مسلم: صحيح مسلم / ، كتاب الصلاة باب حمل الصبيان في الصلاة) مؤسسة الكتب الثقافية - دار الكتب العلمية - بيروت.

آثار المداراة على الأفراد والمجتمع

بعد أن بيّنا معنى المداراة في اللغة والاصطلاح، والفرق بينها وبين النفاق والمداهنة والخداع والتّقية، وذكرنا الأدلة على المداراة من الكتاب والسنة ووجه الدلالة منها، ثم بيّنا أنواعها. يرى الباحث أن هناك بعض الآثار الايجابية التي تسهم في المحافظة على العناصر الأساسية المكونة للبناء الاجتماعي السليم، ومن هذه الآثار:

- سكون وطمأنينة القلوب، وخاصة قلوب المؤمنين، ويكون ذلك بإدخال السرور على قلوبهم بالكلام الطيب ، وطلاقة الوجه، والهشاشة والبشاشة عند لقائهم، والدعاء لهم.. ونحو ذلك.
- جذب الناس لدين الله - سبحانه - وترغيبهم في عمل الخير، على العكس من العبوس والغلظة في الأقوال والأفعال التي تؤدي إلى تنفير الناس عن صاحبها وكرههم له، ولما يدعو إليه.
- إيقاظ القلوب القاسية ، قلوب الكفار، والظلمة، والطغاة ،والفجار، وغيرهم، فتتذكر ، وتتأمل وتنظر ، فتخشى عاقبة الفساد والطغيان، فيرتدع أصحابها عن أعمالهم فيذعنون للحق الموصل إلى الإيمان.
- ردع بعض الجهلة والسفهاء عن جهلهم وسفههم بالإحسان إليهم إذا أساءوا، والصبر عليهم وغض الطرف عن هفواتهم، وعدم الانتقاص من آرائهم، وبذلك نستطيع التقليل من الشر والمساهمة في تكثير الخير.
- انتشار الأخلاق الجميلة بين الناس، وانحسار الأخلاق السيئة. يؤدي إلى التقليل من الشحناء ، والبغضاء، والتقاطع ، والتدابر، والمنازعات .. الخ، فيلتحم المجتمع المسلم، ويتماسك ، ويحافظ على شخصيته.

- المساهمة في الحفاظ على المطالب الأساسية التي جاء بها الدين الإسلامي، من حفظ الدين والنفس والعقل والمال والعرض من الخدش وارتكاب المنكرات، وإشاعة الفوضى وزعزعة أمن المجتمع واستقراره.
- بها تظهر الصورة الإيجابية للإسلام ، في كل ما جاء به والتي حرص الأعداء على تشويهها وتنفير الناس عنه، بوصفه بالغلو والتطرف والجمود والرجعية والهمجية.. إلى آخر ذلك من الأوصاف التي يلصقونها بالإسلام، فيكثر الداخلون فيه، ويقل المعادون له.

هذه هي أهم الآثار المترتبة على المداراة وانعكاسها على الأفراد والجماعات.

الخاتمة

وفي نهاية المطاف لا بد أن نبين أهم النتائج التي توصل إليها الباحث:

- المداراة في اللغة والاصطلاح ليست من المداهنة والنفاق والخداع المنهي عنه وإن كان ظاهرها يوحي بذلك.

وهي ليست من الموالاة المنهي عنها بل هي سنة مشروعة قائمة على الكتاب والسنة من حيث ضبط السلوك الظاهري والسلوك اللفظي تجاه الآخرين.

- المداري والمداهن وأمثاله يستخدمون نفس الألفاظ الطيبة، ويقومون بنفس الأفعال الحسنة، والفرق بين الطرفين أن الأول يبتغي بها وجه الله، والثاني يريد منها أمراً دنيوياً ومصلحة عاجلة.
- المداراة تختلف عن التقية وإن كانت إحدى معانيها، فالتقية قد تكون واجبة، أو جائزة أو محرمة حسب الحال. أما المداراة فهي مندوبة وسنة وأمر مشروع في كل حال شريطة أن لا تكون على حساب الدين والعقيدة والحق، فليس من المداراة أن يصانع المسلم بلسانه عن دينه. فإذا خدش الدين فلا مداراة.
- المداراة ليست أمرا طارئاً ، كما هو الحال في التّقية، بل هي في كل وقت، وحالة مستديمة.
- لا بد من التأسي بالأنبياء -عليهم الصلاة والسلام - في مخاطبتهم ومعاملتهم للناس حيث أُمروا بالقول اللين وخفض الجناح والرقة في التعامل.. الخ فمن دونهم أحرى أن يقوموا بها.
- ليس من شروط المداراة أن تكون من الضعيف، أو المضطر، وإلا فستكون تقية .

- المداراة لا تختص بالمسلم بل هي للناس جميعاً، فعلى المداري أن يخاطب الناس ويعاملهم حسب مقاماتهم، وبما يحبون لأن طبائع الناس مختلفة، فمنهم النزق الشديد سريع الغضب والإنفعال، ومنهم الهيّن الليّن فما يصلح مع الأول لا يصلح مع الآخر. وكل هذا لا يعرف إلا بالمعاشرة والمخالطة.
- تتم المداراة باختيار الكلمات الطيبة التي تحمل معاني جميلة ولطيفة، والتي لا يفهم منها الذم والسب والشتم والتسفيه وغير ذلك، وبمعنى آخر عليه أن يتحبب إلى الناس بأرقّ الألفاظ وأعذبها، بالإضافة إلى مشاركة الآخرين أفراحهم وأحزانهم فيقوم بزيارتهم وتهنئتهم وإيصال الهدايا إليهم، وتعزيتهم والتخفيف من مصابهم وآلامهم، وغير ذلك من الأفعال الحسنة، فلا غنى للإنسان عن الناس، ولا غنى لهم عنه، له إليهم حوائج، ولهم إليه حوائج.
- على المسلم أن يسلك سبيل المداراة، وإلا فليتكلف السلوكيات الليّنة أمام الناس لأنها مدخل إلى اللين القلبي، فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر بأسلوب طيب مقبول، وعليه أن يفارقهم في الأفعال وينكرها في قلبه لا أن يشاركهم فيها رغبة في هدايتهم وتخليصهم مما هم فيه.
- إن صورة الغليظ الغاضب العنيف صورة مشينة معيبة تنفر منها الطباع البشرية، بينما صورة السهل الرقيق الليل، اللطيف، صورة حسنة وضيئة تزين صاحبها وترتاح لها النفوس وتأرِز إليها القلوب.
- باللين والرفق والتعطف والشفقة ينال الإنسان ما لا يناله بالغلظة والقسوة.
- المداراة خلق عظيم وخصلة رفيعة تؤدي إلى نُبل صاحبها وعلو منزلته وشرف مكانته.
- المداراة تنتظم الحياة كلها، فتؤدي إلى استقرار الحياة والشعور بالأمن والطمأنينة بين الحاكم والمحكوم، والأب وابنه، والزوج وزوجته، ورب العمل وأجيره، والسيد وخادمه، وهكذا ، فلا غنى للفاضل الكبير عنها ولا الصغير.

- المداراة في الإسلام فن في التعامل مع الآخرين ندر أن تجد له مثيلا في دين من الأديان ، ولذلك أخذ الدعاة إلى مذاهبهم الهدامة وأفكارهم المنحرفة بهذا الأسلوب الفذّ في التعامل وجذبوا الكثير من الناس إلى دعـواتهم، وتخلـى بعضنا أو أكثرنا عن الهدي النبوي في معاملات الآخرين وإقامـة علاقـات طيبّة معهم. فهي سبيل إلى العيش مع الناس والاندماج بهم.
- المداراة في الإسلام تُعنى بالتركيز على أفضل ما نفوس الآخرين من أجـل تغيير سلوكهم السلبي تجاه الآخرين، وكلما زدنا في التودد إليهم زاد مقـدار تغيرهم.
- إنها بحق أسلوب في التربية الإسلامية الحقة، غفل عنه كثيـر مـن النـاس لاحتوائها على جميع مقوماتها وعناصرها وخصائصها.

والله الموفق الهادي إلى سواء السبيل.

ثبت المراجع

القران الكريم

- الآبي: منصور بن الحسين ، نثر الدر ، تحقيق : محمد علي قوته، مراجعة: محمد علي البجاوي - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة .
- الأصبهاني (أحمد بن عبدالله) : حلبة الأولياء وطبقات الأصفياء، ط ، دار الريان للتراث - القاهرة والكتاب العربي - بيروت م
- الأصفهاني: الراغب ، المفردات في غريب القرآن ، تحقيق: صفوان عدنان، ط ، الدار الشامية - بيروت م.

___ محاضرات الأدباء ومحاورة الشعراء والبلغاء - دار مكتبة الحياة - بيروت.

- الألباني: محمد ناصر الدين: صحيح سنن ابن ماجه، ط - توزيع المكتب الاسلامي - بيروت م.

___ صحيح الجامع الصغير ، ط ، المكتب الاسلامي - بيروت م.

___ صحيح سنن النسائي باختصار السند ، ط ، المكتب الاسلامي باشراف زهير الشاويش ، بيروت م.

- الألوسي: محمود - روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني - ط - نشر محمود شكري الألوسي - إدارة الطباعة المنيرية - دار إحياء التراث العربي - بيروت - م.
- ابن أبي الدنيا : عبدالله بن محمد - مداراة الناس ، ط ، تحقيق: محمد خير رمضان ، دار ابن حزم - بيروت م.
- ابن الأثير : المبارك بن محمد الجزري - النهاية في غريب الحديث والأثر ، تحقيق: طاهر الزاوي وزميله - نشر وطبع - دار الكتاب اللبناني - بيروت ودار الكتاب المصري - القاهرة.

- ابن حجر العسقلاني : أحمد بن علي بن محمد الكتاني - فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، ترقيم محمد فؤاد عبدالباقي - تصحيح وتحقيق الشيخ عبدالعزيز بن باز - مكتبة الرياض الحديثة - الرياض.
ـــ مختصر زوائد مسند البزار على الكتب الستة ومسند أحمد. تحقيق وتقديم: صبر عبدالخالق أبو ذر. مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت هـ.
- ابن الجوزي : عبدالرحمن بن علي - صفوة الصفوة ، تحقيق: محمود فاخوري ومحمد رواس قلعه جي، ط ، دار الوعي - حلب هـ.
- ابن حنبل: أحمد بن حنبل الشيباني، مسند الإمام أحمد وبهامشه منتخب كنز العمال في سنن الأقوال والأعمال - المكتب الإسلامي للطباعة والنشر - دار صادر - بيروت.
- ابن رجب: عبدالرحمن بن علي - جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم - حققه وضبطه وعلق عليه وخرج أحاديثه: وهبة الزحيلي، دار الخير - بيروت - المكتبة التجارية ، مكة هـ.
- ابن فارس (أحمد) - معجم مقاييس اللغة. تحقيق عبدالسلام هارون ، ط دار الجيل - بيروت - القاهرة م.
- ابن كثير : اسماعيل بن عمر - تفسير القرآن العظيم - تحقيق سامي السلامة، ط ، دار طيبة للنشر والتوزيع - الرياض م.
- ابن منظور الافريقي: محمد بن مكرم - لسان العرب المحيط - تقديم الشيخ العلايلي - إعداد وتصنيف : يوسف خياط ونديم مرعشلي - دار لسان العرب - بيروت.
- ابن منقذ: أسامة - لباب الآداب - دار الكتب العلمية - بيروت هـ.
- ابن هشام: محمد بن عبدالملك - سيرة ابن هشام - تحقيق محمد خليل هراس - مكتبة الجمهورية - مصر.

- أبو داود : سليمان بن الأشعث السجستاني ، سنن أبي داود - طبـع الـدار المصرية والدار اللبنانية - القاهرة م.
- البغوي: الحسين بن محمد - شرح السنة : حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه شعيب الأناؤوط وزهير الشاويش، المكتب الإسلامي - بيروت م.
- البيهقي: أحمد بن الحسين - شعب الإيمان - تحقيق: (أبـو هـاجر محمـد السعيد)، ط ، دار الكتب العلمية - بيروت - م.
- التبريزي : محمد بن عبدالله الخطيب - مشكاة المصابيح - تحقيق: محمـد ناصر الدين الألباني، ط ، المكتب الإسلامي - بيروت م.
- الترمذي : محمد بن عيسى : صحيح الترمذي بشرح ابن العربي المـالكي، دار الكتاب العربي - بيروت. وطبعة أخرى - الترمذي: محمد بن عيسى - سنن الترمذي - تحقيق أحمد شاكر - دار الكتب العلمية - بيروت.
- الثعالبي: عبدالملك بن محمد - خاص الخاص - قدم له حسين الأمين - دار مكتبة الحياة - بيروت.
- الجرجاني: علي بن محمد ، التعريفات ، دار الكتـب العلميـة - بيـروت هـ.
- الحائري: عبدالمجيد حسن - الشيعة والعقائد - مطبعـة الآداب - النجـف الأشرف - بغداد م.
- الحنفي : علي بن علي بن محمد بن أبي العز الحنفي - شرح الطحاوية في العقيدة السلفية - تحقيق : أحمد محمد شاكر - طبع ونشر وزارة الشـئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - الرياض هـ.
- حوّى : سعيد - الاساس في التفسير ، ط ، دار السلام للطباعة والنشـر - القاهرة م.
- الذهبي: محمد بن عثمان - سير أعلام النبلاء تحقيق شعيب الأرناؤوط، ط مؤسسة الرسالة - بيروت هـ.

- الرازي : محمد بن عمر بن الحسين - التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) ،ط دار الكتب العلمية - بيروت م.
- السخاوي : محمد بن عبدالرحمن - المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة - دار الهجرة - بيروت - م.
- السعدي: عبدالرحمن بن ناصر - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان، ط ، اعتنى به تحقيقا ومقابلة : د/ عبدالرحمن بن معلاّ اللويحق - نشر مكتبة الرشد - الرياض - هـ ، م.
- الطباطبائي : محمد بن حسين - الميزان في تفسير القرآن ، ط ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت هـ.
- الطبري: محمد بن جرير - جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري) - نشر مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وشركاه - مصر وطبعة أخرى دار المعرفة - بيروت.
- العجلوني: اسماعيل بن محمد - كشف الخفا ومزيل الالتباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، طبعة حلب بإشراف أحمد القلاس - مكتبة التراث الإسلامي - حلب.
- الفيروز أبادي: محمد بن يعقوب - القاموس المحيط - ط - مؤسسة الرسالة - بيروت - م.
- القرطبي : محمد بن أحمد - الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) - دار إحياء التراث العربي - بيروت - م.
- قطب سيَد - في ظلال القرآن ط دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت م.
- المنذري: زكي الدين عبدالعظيم بن سلامة المنذري: مختصر صحيح مسلم - تحقيق : محمد ناصر الدين الألباني ، ط ، المكتب الإسلامي - دار العربية - دمشق م.

- المناوي: محمد بن عبدالرؤوف - فيض القدير شرح الجامع الصغير - ط - المكتبة التجارية الكبرية - مصر - م.
- النسائي : أحمد بن شعيب - سنن النسائي شرح الحافظ جلال الدين وحاشية الإمام السندي - تحقيق: عبدالفتاح أبو غده - ط - مفهرسة - دار البشائر الإسلامية للطباعة - بيروت - م.
- النيسابوري: مسلم بن الحجاج القشيري - صحيح مسلم بشـــرح النـــووي ، تحقيق وتصحيح وترقيم وتعليق : محمد فؤاد عبـــدالباقي - دار الافتـــاء - الرياض هــ - م.

وطبعة أخرى - النيسابوري : مسلم بن الحجاج القشيري : صحيح مســـلم بشرح النووي ، ط ، مراجعة الشيخ خليل الميس - دار العلم - بيـــروت ومؤسسة الكتاب الثقافية - بيروت.
- الهيثمي: علي بن أبي بكر - مجمع الزوائد ومنبع الفوائد - مكتبة القدس - القاهرة هــ.

ــــ موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبّان - تحقيق: عبدالرحمن حمزة - دار الكتب العلمية - بيروت.